مدخل في نقد الشعر القديم والوسيط مدخل في نقد الشعر القديم والوسيط مدخل في نقد الش

أ. د. أحمد درويش

مدخل في نقد الشعر القديم والوسيط

حلقات تليفزيونية لطلاب التعليم العالي

شبكة الألوكة
www.alukah.net

www.alukah.net

مدخل فى نقد الشعر القديم والوسيط

دكتور/ أحمد درويش

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

" بسم الله الرحمن الرحيم "

فى خريف ١٩٨٥م ، أسندت الى مهمة اعداد وتقديم سلسلة من الحلقات الثقافية فى التليفزيون المصرى . ليتم تقديمها من خلال القناتين الأولى والثانية فى اطار " جامعة الهواء " بهدف " تأهيل المعلمين " الذين يتابعون هذه البرامج ويحصلون من خلال المتابعة والامتحان على شهادة جامعية عالية .

وكان من شأن هذه الحلقات أن تغطى مستويين من مستويات دراسة هذه الجامعة هما المستوى الأول الذى يهتم بالأدب الجاهلى والاسلامى ، والمستوى الثانى الذى يهتم بالأدب الأموى والعباسى ، وفى سبيل أداء هذا الهدف اختيرت هذه النقاط الثلاثة عشر لأدير حولها الحديث الذى حاولت أن لا أجعله موجها فحسب الى طلاب " جامعة الهواء " ولكن الى المهتم بالأدب العربى ونقده والذى يتاح له اشباع جانب من رغباته الثقافية من خلال متابعة الشاشة الصغيرة .

لقد كانت الفترة الزمنية المحددة لكل حلقة ، وهى نصف ساعة ، دافعة الى لون من التركيز يشير الى رؤوس المسائل دون أن يدخل فى تفاصيلها ، لكنه يحرص على أن يرسم " وجهة نظر " يمكن من خلالها المضى والمتابعة ، وكانت طبيعة الأداء من خلال الشاشة ، وبالتنسيق مع المخرج ، تقتضى البعد عن الاقتباسات وعدم ذكر المراجع وهى أشياء ربما تتطلبها طبيعة الدراسة التى تعد لتقرأ ، ولقد قدمت هذه الحلقات بالفعل فى شتاء وربيع ١٩٨٦م ، وأعيد تقديمها فى عام ١٩٨٧م ، ووجدت قبولا أعتز به من زملائى وأساتذتى فضلا عن جمهور الدارسين .

وها أنا أطرح " المادة الخام " لهذه المحاضرات دون تعديل أو اضافة ، آملا أن تكون التصورات والآراء التى وردت بها موضعا للمناقشة والتصويب أو الافادة مما يعود بالخير على تراثنا الأدبى والنقدى الذى ننتمى اليه ونعتز به .

وعلى الله قصد السبيل ،،،

أحمد درويش

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

المحتويـــــــات

صفحـــة

- مدخل لقراءة الشعر الجاهلى: الفن وعناصر التبليغ والخلود..... ١
- امرؤ القيس والظمأ الى الحب والموت ٧
- الأعشى صناجة العـــرب ١٥
- شعر الصعاليـــك ٢٣
- عصر صدر الاسلام والعصر الأموى ـ الخريطة السياسية والاجتماعيـــة والثقافيـة ٣٠
- مقاييس جمال النص فى صدر الاسلام وموقف الاسلام من الشعـــر ٣٦
- الغزل فى العصر الأموى ٤٢
- الغـــزل العـــذرى ٤٨
- مدخل لدراسة الأدب فى العصر العباســـى ٥٦
- ترجمة شخصية أدبية : عبدالله بن المعتز ٦٣
- مدخل لدراسة الأدب الأندلســـى ٦٩
- مدخل لدراسة النقد الأدبى عند العرب ٧٦
- نظرية الأسلوب فى البلاغة العربيـة ٨٢

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الحلقة الأولى

مدخل لقراءة الشعر الجاهلي

الفن وعناصر التبليغ والخلود

قدمت في ٢٩ يناير ١٩٨٦م

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

مدخل لقراءة الشعر الجاهلي
الفن وعناصر التبليغ والخلود

أدركت الجماعات البشرية فى الحضارات القديمة بغريزتها أن عمر الانسان الفرد أقصر بكثير من أن يحقق جزءا من معنى الطموح للخلود الذى يحلم به الانسان الروح . والكائن المتميز على سطح الأرض ، ومن ثم فقد لجأت هذه الجماعات الى " الفن " باعتباره الوسيلة المثلى التى تحاول الاقتراب من هذا الحلم فى شكل الاحتفاظ بتجربة الانسان فى عمره القصير حية بعد رحيله لكى تضاف الى حيوات الآخرين وتجاربهم .

ولأن هذا الفن كان يراد له أن يستمر حيا ، فقد كان من الضرورى أن يكون مجسدا لكى يحتفظ فى عمقه بروح التجربة التى ولدته . وقد تشكل هذا التجسيد أنا فى شكل المعمار وأنا آخر فى شكل التمثال . وأحيانا فى شكل الجسد البشرى نفسه محنطا ، أو فى شكل نتائج الذهن البشرى مكتوبا ومدونا حين اهتدى الانسان الى وسائل التدوين .

لكن الحضارة العربية القديمة اختارت أن تدون رسالتها الفنية فى شكل مسموع بالدرجة الأولى تمثل فى الشعر الجاهلى ، وقد كان هذا الفن مسموعا لأن الأمية كانت سائدة ، ومن هنا فلم يعرف طريقه للتدوين الا فى فترات متأخرة ، ربما بعد أن انتهى العصر كله الذى ولدت فيه الرسالة الفنية ، وفى هذه الحقيقة تكمن الصعوبة الأولى فى الشعر الجاهلى والخاصة الأولى له أيضا . لقد ولد هذا الشعر فى شكل مسموع أى أنه كتب فى الهواء اذا صح هذا التعبير ، ولكنه فن ، وكل فن يحتاج الى التجسد والتميز ، وهو فى الوقت ذاته رسالة خلود تحتاج الى التعهد والحفظ من الضياع ، ولقد آلى الشعر على نفسه أن يحقق الشطر الأول وهو مطلب الفن الرفيع وآلى جمهوره على أنفسهم أن يحققوا الشطر الثانى

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وهو جعل رسالته التى تطمح للدوام والخلود .

لكى يحقق الشعر فنيته وتميزه لجأ الى الموسيقى ، موسيقى اللغة وموسيقى الأداء ، وربما أيضا موسيقى النغم المصاحبة ففى سبيل موسيقى اللغة ، قطع الشعر الجاهلى شوطا بعيد المدى ، لانعرف بدايته ، لأننا لانعرف بداية الشعر الجاهلى نفسه وكل مالدينا من نصوصه يمتد قبل الاسلام بقرن أو يزيد قليلا . ولكننا اذا كنا نجهل بداية الشوط ، فاننا نعرف مدى عمقه ، ويكفى فى هذا الصدد أن يقال ، ان تنوع موسيقى الشعر الجاهلى بلغت من الغنى حدا كبيرا رصده العلماء فيما بعد فى ستة عشر بحرا من الشعر ، وبلغ من كمالها أن خمسة عشر قرنا من تاريخ هذا الأدب أتت بعدها ، فلم تستطع أن تضيف الى هذه الموسيقى الا اضافات قليلة تنبع فى الغالب من محاولة اعادة توزيع بعض نغمات موسيقى القصيدة الجاهلية ، مع أن موسيقى الشعر الجاهلى رصدت من خلال ملاحظة هذا الشعر فى قرن واحد من الزمان ومحاولات التجديد استمرت بعده حتى الآن .

وقد يكون من المفيد هنا التذكير بأن تنويعات هذه الموسيقى تنتقل من الموسيقى البسيطة ، فيما يسمى بشعر التفعيلة الواحدة ، مثل بحور الرجز والكامل والوافر والمتقارب وبين الموسيقى الأكثر تعقيدا فيما يسمى التفعيلة المزدوجة مثل بحو الطويل والبسيط والخفيف ، ومن المنطقى أن تكون الموسيقى المعقدة متأخرة فى الظهور عن الموسيقى البسيطة ، وأن يستعان بذلك المبدأ عند محاولة تبين الموقع الزمنى لبعض القصائد على خريطة التاريخ الجاهلى الواسع والمجهول ...

على أن القصيدة لم تستعن بموسيقى اللغة فقط ، وانما استعانت

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

كذلك بموسيقى الأداء البشرى ، فالقصيدة كانت تؤدى على نحو أقرب للغناء ، والفعل الذى كانت تستخدمه اللغة لذلك الأداء هو الفعل" أنشد" فيقال " أنشد " قصيدة ، والانشاد شديد الارتباط بالغناء وكان يوجد المنشد للشعر ، وهو يجمع الى جودة الصوت قوة الحافظة لكى يكون " راويا " للشعر ، ولأن كل قبيلة تعتز بشاعرها أو شعرائها فهى تحرص على أن يكون له راو أو رواة ، يحفظون ذلك الشعر ،ويؤدونه أداء حسنا يحبب الناس فى الاستماع اليه وحفظه وكأنهم فى ذلك يستعينون على ذلك الكلام الذى من شأنه حين يفقد القدرة أن يطير مع الهواء ، يستعينون عليه بوسائل التثبيت من موسيقى اللغة وموسيقى الأداء حتى يستقر فى النفوس والعقول والأفهام . فيتحقق جزء من معنى رسالة الفن فى السعى نحو الدوام والخلود .

لكن هذا الهدف واجهته مشكلة أخرى ، تتمثل فى الاتساع الهائل لحجم الأرض التى تنطق عليها هذه اللغة ، والتى من شأنها آن تردد هذا الشعر فى جنباتها لكى يؤدى رسالته ، كانت هذه الأرض تمثل شبه الجزيرة العربية التى تقع فى أقصى الجنوب الغربى من قارة آسيا والتى يحدها من الشمال بلاد الشام ومن الشرق الخليج العربى ومن الجنوب المحيط الهندى ، ومن الغرب البحر الأحمر . وهى فى معظمها - كما هو معروف - منطقة صحراوية تتفاوت ارتفاعا وانخفاضا ، جفافا وخصبا وتسمى أماكنها حسب نصيبها من الظواهر الطبيعية فحين تميل الأرض الى الانخفاض فى الجزء الغربى من شبه الجزيرة منحدرة نحو البحر الأحمر تسمى هذه المنطقة " تهامة " دلالة على الأرض المنخفضة ، واذا ارتفعت قليلا فى النصف الشرقى سميت المنطقة " نجد " اشارة الى الارتفاع أما حاجز السلاسل الجبلية

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

بين نجد وتهامة فيسمى بالحجاز ، وحين تجود الأمطار على جنوب الجزيرة العربية فينبت الزرع ويكثر الخصب والنماء واليمن ، فان المنطقة تسمى باليمن اشارة الى هذا ، وعندما تخلو منطقة كبيرة من السكان لصعوبة الحياة فيها فى الجزء الجنوبى الشرقى من شبه الجزيرة العربية ، فانها تسمى بالربع الخالى ...

هذه المنطقة على اتساعها كانت تسود فيها لغة واحدة تتفرع الى لهجات مختلفة ، فكيف كان يحقق الفن الشفوى رسالته خلالها فى التوصيل ؟

لقد كان يتم اللجوء الى تجمعات منتظمة تكاد تستمر على مدار العام وتعقد فى أيام معلومة وفى أماكن معلومة يتم فيها التبادل التجارى والفنى فى وقت واحد ، وتعرف بالأسواق فقد كان هناك :

سوق دومة الجندل ، ويعقد فى ربيع الأول .

سوق هجر ، ويعقد فى ربيع الثانى .

سوق عمان ، ويعقد فى جمادى الأولى .

وأسواق تتلوه فى البحرين وعدن وصنعاء ، حتى يصلوا الى سوق عكاظ وهو من أكبر أسواقهم ، فيعقد فى مدينة الطائف فى موسم الحج ...

وفى كل هذه الأسواق يلتقى رواة الشعر مع محبيه وهم يمثلون فى مجملهم معظم سكان الجزيرة ، ويتنافس الشعراء ، ويفاضل النقاد بينهم ، كانت تضرب للنابغة الذبيانى قبة حمراء فى سوق عكاظ ويتوافد عليه الشعراء ، ينشدونه وهو يحكم بينهم ويفاضل ويلقى ببعض التوجيهات والتحليلات الخاطفة .

لكن الشعر الجاهلى اذا كان فنا يتنافس على الجودة فيه الأفراد

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

من الشعراء ، فهو أيضا مظهر اجتماعى وسياسى وشرفى تتنافس على الاحتفاظ به وتداوله قبائل هؤلاء الشعراء ، ومن هنا فقد حرصت القبيلة على اتساعها أن يظل الخيط بين أفرادها متصلا ولو من بعيد ، ولو من خلال قصيدة ينشدها أحد شعراء القبيلة فى مكان بعيد ، فيرويها غيره ممن لم يلتق به فى مكان آخر ، ولقد تسبب هذا دون شك فى جزء من وجود ظاهرة الانتحال التى تولت خلالها القبائل فى فترة التدوين استكمال أنصبتها من الشعر ، فنسبت الى شعرائها القدماء بعض مالم يقولوه لكى تتساوى كفتها فى الاعتزاز والفخر مع كفة القبائل الأخرى أو ترجحها ، لكن هذا الدافع ذاته ، ربما كان واحدا من الأسباب التى جعلت هذه القبائل الأمية التى لم تكن تعرف الكتابة والتدوين تحتفظ بنسيج متشابك دقيق لسلسلة الأنساب فيها عبر أجيال كثيرة متعاقبة ، وتروى كتب التاريخ سلاسل النسب هذه ، وتتشعب بها من الأقسام الكبرى الى الأقسام الصغرى ، من الجماهير، الى الشعوب ، الى القبائل ، الى العمائر ، الى البطون الى الأفخاذ ، الى العشائر ، الى الفصائل ، الى الرهوط .

وجداول النسب التى يعدها الدارسون ، تظهر الى أى حد ، يمكن من خلال النظر فى واحد أن نعرف صلة النسب التى تجمع بين شاعرين ربما يفصلهما أكثر من قرنين ، فقبائل تميم ، ينتمى الى جداولها العامة شعراء مثل امرىء القيس ، والعجاج ، ومالك والفرزدق وجرير . كذلك الشأن فى قبائل أخرى مثل بكر وربيعة وقيس وأسد وقص وقضاعة .

هذا التماسك القوى هو الذى يفسره القارىء اليوم ، كيف أمكن لهذا التراث الهائل من الشعر أن ينتقل عبر المشافهة خلال نحو قرنين قبل

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

أن يستقر في بطون كتب المختارات والمفضلات ودواوين الشعراء الجاهليين التي دونت في العصر الاسلامي وهو يفسر كيف أن هذا الشعر الذي انطلق من كونه فنا رائعا يعبر عن ظمأ الجماعة البشرية العزيز للخلود ، قد استطاع أن يبحث لنفسه عن الوسائل الفنية والاجتماعية التي تكفل له تحقيق رسالته وتوصيلها الينا .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الحلقة الثانية

" امرؤ القيس والظمأ الى الحب والموت "

قدمت فى ٥ فبراير ١٩٨٦م

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

" امرؤ القيس والظمأ الى الحب والمـــوت "

على النحو الذى تقترب به الفراشات من مصدر الضوء وتظل ترقـــص حوله وتغنى ، دون أن تحسب حسابا للخطر الكامن قريبا منها حتى تحترق، على هذا النحو كانت حياة علم الجاهلية القديم وأشهر شعرائها ، بـــل وأشهر شعراء العربية على الاطلاق : " امرؤ القيس " .

كان قد اختار لنفسه أو اختارت له المقادير محورين من محـــاور الحياة ، يبدوان متباعدين ، ولكنه مزج بينهما وصهرهما فى كيميـــاء الشعر حتى أصبحا محورا واحدا ، يمزج بين الحب والموت ، ويبحث فـــى وحشة أحدهما عن لذة الآخر ولم تكن عبارته الشهيرة : "اليوم خمر وغـدا أمر " الا معبرا ربط بين هذين المحوريـــن .

وكان امرؤ القيس قد شغل الدنيا والناس حوله ، عاشقا أو طالبـــا للثأر ، أو مغتربا أو محاربا ، أو فتى ناحلا يذوى ويقضى عليه أو يمـوت فى بلاد الأعاجم ، ومن كل هذه الزوايا ، جرت حكايته على كل لسان ،وجرى شعره معها ، وتداخل جانب الأسطورة مع جانب الحقيقة فيها فأصبح شعـــره أسطورة وأصبحت أسطورته شعرا ، ومن هنا أيضا شغل الدارسين بعده لكـــى يميزوا بين الجوانب المختلفة فى تراثه الفنى .

"وامرؤ القيس" ينتمى الى قبيلة كندة ، التى هاجرت من اليمـن ، واستقرت فى نجد . وقد عاش فى القرن السادس الميلادى ومات قبـــل ولادة الرسول بسنوات قليلة ، (بعض الروايات تقول انه مات سنة ٥٦٥ ، وقـــد ولد الرسول سنة ٥٧٠) وقد عاش نحو خمسين عاما ، ومعنى ذلك أنه ليس أقدم الشعراء الجاهليين كما قد يتبادر الى الذهن ، ولكنه من أكثرهم تأثيرا فى شكل القصيدة العربية وتقاليدها كما أشار الى ذلك النقـــاد القدمـــاء .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

كان اسمه امرؤ القيس (وهى كلمة معناها رجل الشدة) وكان ابنا لحجره بن الحارث ملك قبيلة بنى أسد التى كانت تقطن منطقة نجد والتى كان ينتمى اليها الشاعر الجاهلى المشهور عبيد بن الأبرص ، ولقد جنى الشعر على الأمير الصغير منذ بدء شبابه ، فلقد عرف الحب والتغزل فى بنات القبيلة والقبائل المجاورة ، وكان ذلك يوقع الملك فى الحرج، ويبدو أن ذلك قد بلغ مداه بفاطمة بنت العبيد من قبيلة بنى عذرة ، وهى التى يرد اسمها فى المعلقة حين يقول :

أفاطم مهلا ، بعض هذا التدلل
وان كنت قد أزمعت(١) صرمى(٢) فأجملى
أغرك منى أن حبك قاتلى
وأنك مهما تأمرى القلب يفعل

وليست هذه الأبيات بالطبع التى أغضبت أباه ، ولكنها أبيات أخرى فى المعقلة يشير فيها الى مغامرات جرت داخل الخيام تحت جنح الليل مع هذه الفتاة وغيرها . وأبيات فى قصائد أخرى تكرر نفس النغم كقولة :

ويارب يوم قد لهوت وليلة ... بآنسة كأنها خط تمثال
يضيء الفراش وجهها لرفيقها ... كمصباح زيت فى قناديل ذبال(٣)
سموت اليها بعدما نام أهلها ... سمو حباب الماء حالا على حال
فقالت : سباك الله ، انك فاضحى ... ألست ترى السمار والناس أحوالى
فقلت يمين الله أبرح قاعدا ... ولو قطعوا رأسى لديك وأوصالى

---

(١) أزمعت : قررت .
(٢) صرمى : قطع علاقتك بى .
(٣) قناديل : مصابيح ، ذبال : جمع ذبالة وهى الفتيلة .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

لكن الملك يقرر أن يطرد ابنه بعيدا عن حماه ، وتبدأ فى حياة امرىء القيس مرحلة من الصعلكة ، يلتقى خلالها كما يقول صاحب الأغانى بأخلاط من شذاذ العرب فاذا صادف غديرا أور وضة أو موضع صيد أقام فذبح لمن معه فى كل يوم ، وخرج الى الصيد فتصيد ثم عاد فأكل،وأكلوا معه ، وشرب الخمر وسقاهم وغنى قيانه ولايزال كذلك حتى ينفد ماء ذلك الغدير فينتقل الى غيره .

ولعل هذه المرحلة هى التى عرفت ذلك الاتصال القوى بين الشاعر والطبيعة ، والتى ساعدت على استخراج أجمل اللوحات الخالدةفى تاريخ الشعر العربى ، والتى جرى فيها تأمل عميق لليل والنهار والمطر والامتداد اللامتناهى للصحراء ولقمم الجبال التى تجثو ساكنه كأنها شيخ غطى رأسه بعباءة مخططة ثم أيضا لحيوانات هذه الطبيعة التى ترافق الشاعر فى وحشتها وتتحدث اليه فى سلوكها ، الناقة والجمل على الأرض، والنسر والعقاب فى السماء ، وفى مرمى أبصارها ومدى وقع تحرك خطاها أو خفق أجنحتها تكمن عشرات أخرى من الحيوانات أو الطيور الصغيرة التى توشى لوحات الشاعر المتعددة .

هاهى لوحة الليل الشهيرة عنده تقول :

وليل كموج البحر أرخى سدوله ... على بأنواع الهموم ليبتلى(١)
فقلت له لما تمطى بصلبه ... وأردف أعجازا وناء بكلكل(٢)
ألا أيها الليل الطويل ألا أنجلى ... بصبح وما الاصباح منك بأمثل
فيالك من ليل كأن نجومه ... بكل مغار الفتل شدت بيذبل(٣)
كأن الثريا علقت فى مصامها ... بأمراس كتان الى صم جندل(٤)

(١) السدول : الستائر - يبتلى : يختبر .
(٢) الصلب : الظهر - ناء : نهض - الكلكل : الصدر .
(٣) مغار الفتل : شديد الفتل - يذبل : اسم جبل .
(٤) مصام : مدار - أمراس : جبال قوية - صم جندل : صخر أصم .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وهاهو يمزج الحصان بالصقر فى لقطة واحدة عندما يعلو غلامه ظهر الحصان لكى يصطاد به أرنبا بريا فهو يهوى عليه كالصقر يطارده بنظرات قلقة لاتستقر فى مكان :

كأن غلامى اذ علا حال متنه ... على ظهر باز فى السماء محلق(١)
رأى أرنبا فانقض يهوى أمامه ... اليها وجلاها بطرف ملقلق(٢)

لكن هذه المرحلة التى جرت امرأ القيس الى أقصى طرف محور المتعة واللهو ممثلا فى الصيد والشراب والغزل وحرية الانتقال من مكان الى مكان ، لم تدم طويلا ، فقد تطورت على نحو مفاجىء فى العلاقة بين قبيلة بنى أسد وبنى حجر بن الحارث ملكها ووالد امرىء القيس ، فقد تمرد بعض أبناء القبيلة على دفع الضرائب أولا . فغالى الملك فى عقابهم واهانتهم وطردهم ، وآلمتهم الاهانة فقرروا الانتقام وكان أن فاجأوا الملك فى خيمته فقتلوه . وتقول الروايات ان الملك عندما أصيب ، كتب وصية يطلب من أولاده فيها أن يثأروا له من بنى أسد ، وأعطى الوصية لرجل وطلب منه أولا أن يمر على أولاده بادئا بأكبرهم وأن يخبرهم بقتل أبيه ، فمن أظهر منهم الجزع والحزن لايعطيه الوصية ، ومن تماسك منهم أعطاها له - ويمر الرجل عليهم جميعا فيظهرون الجزع والحزن ، حتى يصل الى أصغرهم امرىء القيس ، فيجده منشغلا باللعب والشراب ، وحين يخبره ، يكمل جولة اللعب التى كانت معه ، ثم يلتفت الى الرجل فيسأله عن الأمر ، وعند مايعرف ، يقول : " ضيعنى صغيرا وحملنى دمه كبيرا ، لاصحو اليوم ولا سكر غدا ، اليوم خمر وغدا أمر ، حرام على المتعة حتى أقتل من

(١) حال متنه : وسط ظهره .
(٢) جلاها : نظر اليها . - ملقلق : غير مستقر .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

بنى أسد مائة وأجز نواصى مائة .

منذ هذه اللحظة تبدأ رحلة امرىء القيس ، نحو الطرف الآخر من رحلة الحياة ، نحو الموت ، وهى رحلة سوف يعطيها كل همه وطاقته ، ولن يكف عن الدوران حولها حتى يحترق فيها ، لكنه خلال الدوران، سيعطينا هذه المرة خلاصة رائعة لكثير من جوانب الحكمة فى الحياة: سمو الهدف وكيف يعذب الجسد فى سبيله ، بعد الهمة ، وكيف يتحول الى خيط مرئى ، الصداقة ، وكيف لاتصمد أحيانا للحظات الشدة القاسية ، الغربة البعيدة وكيف تبعث كل معانى الحنين والشوق فى النفس البشرية ، الاحساس بشبح الموت يقترب ، وكيف يذوقه الشاعر ويحس ريحه .

لقد آصر امرؤ القيس فى هذه المرحلة على أن يستنفر القبائل لنصرته ومساعدته على الثأر من بنى أسد وهو فى سبيل هذا لايكف عن أن يسلك كل الطرق ولايمل ، فهو لايرضى بشىء دون هدفه :

فلو أن ما أسعى لأدنى معيشة
كفانى ، ولم أطلب ، قليل من المال
ولكنما أسعى لمجد مؤثل
وقد يدرك المجد المؤثل أمثالى(١)

وتساعده بعض القبائل العربية ، ويشن حربا خاطفة ضد بنى أسد ، لكنه لايروى ظمأه كاملا ، وتخذله القبائل فلا تواصل المسير معه ، ويقرر أن يذهب الى أبعد مدى ، أن يذهب الى قيصر ملك الروم ، ويقوم برحلة طويلة شاقة من قلب الجزيرة الى بلاد الشام ثم يجتازها الى تركيا حتى

(١) الموثل: المثمر الذى له أصل .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

يصل الى بيزنطة ، ويصحبه فى هذه الرحلة الشاعر عمرو بن قميئة وشعره فى هذه المرحلة يحمل كثيرا من وصف الرحلة ومشاقها ، والتقلبات النفسية التى مر بها والحوار الذى يدور بينه وبين صاحبه فى الرحلة ، يقول :

بكى صاحبى لما رأى الدرب دونه
وأيقن أنا لاحقان بقيصرا
فقلت له لاتبك عينك انما
نحاول ملكا أو نموت فنعذرا
لقد أنكرتنى بعلبك وأهلها
ولابن جريح فى قرى حمص أنكرا
أرى أم عمرو دمعها قد تحدرا
بكاء على عمرو وماكان أصبرا
اذا نحن سرنا خمس عشرة ليلة
وراء الحساء من مدافع قيصرا (١)
اذا قلت هذا صاحب قد رضيته
وقرت به العينان بدلت آخرا
كذلك حظى .. ما أصاحب صاحبا
من الناس الا خاننى وتغيرا

وتشتد رحلة امرىء القيس توغلا فى بلاد يرى نفسه فيها غريب الوجه واليد واللسان ، وتتكاثر عليه الهموم والأحزان ويحس بأنه فى حاجة الى

---

(١) الحساء : الرمال ، مدافع : بلاد .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الأصدقاء ، وهو يناديهم من بعيد :

من هنا لى من صديق فليعد ... ليعدنى اننى اليوم كمد
ليت شعرى ولليت نبوة ... أين صار الروح اذ بان الجسد
بينما المرء شهاب ثاقب ... ضرب الدهر سناه فخمد
ولبينا المرء يهوى قدما ... أفسد الدهر غناه ففسد

وهو فى بعض اللحظات يحس بطول المسعى وكثرة الجهد وقلة النتائج وخيبة الأمل ، ويحس مع هذا كله بشبح الموت يقترب ، وهو يقول :

أرانا مسرعين لأمر غيب ... ونسخر بالطعام وبالشراب
فبعض اللوم عاذلنى فانى ... ستكفينى التجارب وانتسابى
الى عرق الثرى وشجت عروقى ... وهذا الموت يسلبنى شبابى
ونفسى سوف يسلبها وجرمى ... فيلحقنى وشيكا بالتراب
وقد طوفت فى الآفاق حتى ... رضيت من الغنيمة بالاياب

ان امرأ القيس سوف يقدر له أن يموت فى بلاد الروم وأن يدفن فى أنقرة ، قبل أن يحقق هدفه فى الثأر لأبيه من بنى أسد ، لكنه بعد أن حقق هدف الفن العظيم فى امتصاص خلاصة التجربة الرائعة فى الالتحام الشديد بالحياة والطبيعة والحب والموت ، والرقص حول هذه المحاور والاحتراق فيها حتى يهب لنا ذلك الفن السهل الخالد الذى نقرؤه ونتمتع به كأعذب ماقدمه لنا تراث الشعر الجاهلى القديم .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الحلقة الثالثة

صورة معاصرة لشاعر قديم

الأعشى

صناجة العرب

قدمت فى ١٢ فبراير ١٩٨٦م

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

صورة معاصرة لشاعر قديم

الأعشى

صناجة العرب

يذكر اسم الشاعر الجاهلى ميمون بن قيس الذى عرف بلقب الأعشى الكبير ، فتذكر معه مجموعة من القيم التى ظلت مرتبطة بالشعر العربى فى تاريخه الطويل ، والتى كان الأعشى أول من جسدها وجودها ان لم يكن أول من طرحها ، وهذه القيم بعضها يتصل بفن الشاعر فى صناعته ، وبعضها يتصل بمحيطه الذى كان يتحرك فى دائرته الواسعة ، وبعضها يتصل بدوره الاجتماعى الكبير والخطير فى المجتمع العربى القديم ،ثم يمس بعض هذه القيم الموضوعات التى كان يؤثر الشاعر القديم أن يتناولها.

ولعل أول مايشار يتصل بلقب الشاعر : "الأعشى " وهو لقب يعنى ضعف الأبصار ليلا ، أو فقدانه ، وقد لقب به شعراء آخرون بعده ولهذا فانه يتميز بلقب الأعشى الكبير أو الأكبر ، أو أعشى قيس ، وسواء كان الشاعر قد أصيب بضعف البصر أو فقدانه فان عاهته لم تمنعه من أن يتبوأ مكانة متميزة بل شديدة التميز فى تاريخ الشعر العربى ، لعله من هذه الناحية يقف على رأس فريق من الشعراء والأدباء بعده ، شقوا الطريق ببصائرهم لابأبصارهم من أمثال بشار بن برد وأبى العلاء المعرى ، ومن أمثال طه حسين فى الأدب المعاصر .

أما مكانة الشاعر فى المجتمع فان تاريخ حياة الأعشى يقدم لنا كثيرا من المواقف الدالة على القدرة الخارقة التى كان يتمتع بها الشاعر الجيد فى المجتمع القديم ، كان الدفاع عن القبيلة فى مقدمة المهام التى يتحملها الشاعر ، ولسانه لايقل فعالية عن السيف والأعشى يقول لأفراد قبيلته :

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وأدفع عن أعراضكم وأعيركم لسانا كمقراض الخفاجي ملحبا (١)

لكن هذه القوة ، لاتوجه فقط لحل مشاكل القبيلة ضد عدائها وانما لحل المشاكل الاجتماعية التى تعترض بعض أفرادها ، وها هو رجل عربى فى عصر الأعشى يكثر بناته ولايتقدم لخطبتهن أحد ، فيسعى الى الأعشى بالعطاء والكرم أملا أن يقول الأعشى شعرا فى مدحه ، فيسير شعره فى الناس ، ويتقدم الشباب لخطبة بناته ، ويقع الكرم الذى يقدمه ذلك الرجل واسمه " المحلق الكلابى " من نفس الأعشى موقعا حسنا ، فينشد قصيدة فى مدحه يشيع منها على نحو خاص ، هذان البيتان :

لعمرى لقد لاحت عيون كثيرة الى ضوء نار باليفاع تحرق
تشب لمقرورين يصطليانها وبات على النار الندى والمحلق

وعندما تشيع القصيدة فى القبائل يتقدم كثير من الشباب لخطبة بنات المحلق ، وتقول الروايات القديمة انه اذا كان المحلق قد ذبح ناقته الوحيدة كرما للأعشى ، فان قصيدة الأعشى جرت على المحلق تمانمائة ناقة مهرا لبناته الثمانى اللاتى تزوجن بعد قصيدة المدح .

لكن قمة الدلالة على ثقل هذه المكانة فى المجتمع وتصارع القوى الكبرى فيه على اجتذاب الشاعر الى جانبها ، يتضح فيما يروى من قصة محاولة الأعشى الدخول فى الاسلام .

فعندما شاع أمر الاسلام واستقر بعد الهجرة وحسم الصراع بين الوثنيين والمسلمين لصالح المسلمين ، فكر الأعشى فى أن ينضم الى القوة

---

(١) قاطعا .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الغالبة ليأخذ من الغنم ويتقى الغرم وأعد بالفعل قصيدة فى مدح الرسول ، بدأها بالغزل التقليدى فى قوله :

ألم تغتمض عيناك ليلة أرمدا
وعادك ماعاد السليم المسهدا
وماذاك من عشق النساء وانما
تناسيت قبل اليوم خلة مهددا

ثم تابع الحديث التقليدى الذى يعقب لوعة العشق والارتحال على ناقة قوية فى صحراء قاحلة يصيبها التعب والكلال من كثرة السير ولكن الشاعر يمهد بوصف تعبها فيقول عن ناقته :

فآليت لاأرثى لها من كلالة ولامن حفا حتى تزور محمدا
نبى يرى مالا ترون وذكره أغار لعمرى فى البلاد وأنجدا
متى ماتناخى عند بابابن هاشم تراحى وتلقى من فواضله يدا

ومع أن الأعشى كان يعيش بعيدا عن مكة والمدينة حيث يوجد الصراع بين المسلمين والوثنيين فقد طار خبر عزم الأعشى على دخول الاسلام إلى المكيين فأفزعهم ذلك كثيرا ، وخافوا أن تنضم هذه القوة الكبيرة الى جانب أعدائهم . وقالوا : " هذا صناجة العرب مامدح أحدا قط الا رفع فى قدره " وترصدوه على طريق المدينة حتى مر بهم - فقالوا له : " أين أردت يا أبا بصير " قال أردت صاحبكم هذا لأسلم ، قالوا: انه ينهاك عن حلال ويحرمها عليك ، وكلها بك رافق ولك موافق ، قال وماهن ، قال أبو سفيان بن حرب ، الزنا ، قال الأعشى ، لقد كبرت ، قال والقمار قال لعلى ان لقيته أن أصيب منه عوضا عن القمار ، ثم ماذا ؟

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قالوا الربا ، قال مادنت أحدا ولاتداينت من أحد ثم ماذا ؟ قالوا الخمر قال .. أما هذه فيصعب على النفس تركها .. ارجع عامى هذا فاروى منها ثم أعود فى العام القادم ، قال له أبو سفيان ، هل لك فى مائة من الابل نجمعها لك وتعود الى قبيلتك فتنتظر حتى ترى لمن منا ستكون الغلبة فتتبعه ، قال ما أكره ذلك ، قال أبو سفيان يامعشر قريش، هذا الأعشى ، والله لئن أتى محمدا واتبعه ليضر من عليكم نيران العرب بشعره فاجمعوا له مائة من الابل ، ففعلوا فأخذها وعاد بها فلما كان فى طريق العودة وقع من فوق جمل له فمات . ولم تكن قريش تترصد الطريق للأعشى وتبذل له كل هذه الهبات لو لم تكن له هذه المكانة عند قبائل العرب جميعا .

كان الأعشى يلقب بأنه " صناجة العرب ، وهو لقب يتصل بالغناء فما الذى جعله يكتسب ذلك ؟ هل كان شعره يجرى كثيرا على ألسنة المغنين؟ هل كان شعره يتمتع بخصائص موسيقية مميزة جعله صالحا للترنم والشدو؟ أم كان الأعشى نفسه مغنيا حسن الصوت يترنم بشعره فيطرب الناس للقول الجيد والصوت الجميل معا ؟ كل هذه الاحتمالات واردة ، فاحدى الروايات تتحدث عن أن الأعشى كان مرة يتغنى بشعره فى بلاط كسرى ملك فارس ، فسمعه كسرى ينشد قوله :

أرقت وماهذا السهاد المؤرق ومابى من سقم ومابى معشق

فسأل كسرى ماذا يقول هذا العربى ، فترجموا له أنه يقول : سهرت من غير مرض ولاعشق ، فقال كسرى ، اذن فهو لص ، وتعليق كسرى دون شك ينتمى الى المدى الذى يمكن أن تبلغه ترجمة الشعر فى نقل الاحساس به ، ولكن الذى يهمنا هو أن صوت الأعشى المغنى هو الذى لفت نظر الملك

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الفارسى ، ولم يكن ليسمح لأحد بالغناء فى بلاط ملك أجنبى الا اذا كان على درجة من الاحتراف والجودة الكافية ولعل ذلك يرجح أنه كان صناجة للعرب من هذه الزاوية على أن ذلك لايمنع من ورود الاحتمالين الآخرين فى تفسير معنى صناجة العرب فموسيقى شعر الأعشى كانت أكثر لينا وأقرب الى طبيعة الغناء وكان ذلك تطورا طبيعيا للشعر فى نهاية العصر الجاهلى.

واذا حاولنا أن نعرض هذا الفرض على معايير علم موسيقى الشعر لنعرف خصائص موسيقى شعر الأعشى ، فاننا سنجد أن ديوان الأعشى فى احدى طبعاته يتكون من (٨١) قصيدة تتوزع أهم البحور فيها على النحو التالى :

البحر	عدد القصائد	النسبة المئوية
بحر الطويل	٢٨	٣٤٪
المتقارب	١٠	١٢٪
الكامل	٧	٨ر٥٪
الوافر	٦	٧ر٥٪
مجزوء الكامل	٦	٧ر٥٪
الخفيف	٥	٦٪

ولعل مما يلفت النظر فى هذا الجدول ، احتلال بحر المتقارب لنسبة عالية تصل الى ١٢٪ وهو بحر موسيقى متدفق وكذلك احتلال الوافر ومجزوء الكامل لنسب عالية تساعد على صلاحية الشعر للغناء ، وظهور بحر الخفيف .

ولعل القيمة الغنائية لشعر الأعشى تتضح لو قارناها مع موسيقى شاعر كبير آخر مثل امرىء القيس ، فسوف نجد الفروق على النحو التالى :-

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

البحـــــر	نسبته عند امرىء القيس	نسبته عند الأعشى
الطويـــــل	٧٢٪	٣٤٪
المتقـــارب	٤ر٠٠٪	١٢٪
الكامـــل	٧ ٪	١٦٪
الوافـــر	–	٧ر٥٪
الخفيـــف	–	٦٪

على أن شعر الأعشى لم يكن يغنى فقط لموسيقاه الرقيقة وانما أيضا لهذا اللون من المعانى التى كان يتميز به شاعر كثير التجـــوال والتجربة ، وقد تنوعت اللوحات الجميلة التى يمكن اقتباسها من شعـــر الأعشى ، فمن غزل رقيق مثل قوله :

قام الخلى ،وبت الليل مرتفقـا أرعى النجوم عميدا مثبتا أرقا
أسهو لهمى ودائى،فهى تسهرنـــى بانت بقلبى وأمسى عندها علقا (١)
ياليتها وجدت بى ماوجدت بهـــا وكان حب ووجد دام فاتفقـــــا
صادت فؤادى بعينى مغزل خذلـــت ترعى أغن غضيضا طرفه حرقـا (٢)

الى صور رحيل المحبوبة وسط صبايا أهلها بعيدا عن الحى ، وتتبع الشاعر لأدق التفاصيل فى مثل قولـــه :

أذن اليوم جيرتى بحفـــــوف صرموا حبل آلف مألـــــوف (٣)
واستقلت على الجمال حـــدوج كلها فوق بازل موقـــــوف
من كرات وطرفهى سجـــــو نظر الأدم من ظباء الخريـــف (٤)

(١) بانت ، بعدت ، غلقا : مرهونـــا .
(٢) خرق : خائف .
(٣) الحفوف : الرحيل .
(٤) الكرات : النواعس، الأدم : الظباء .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

أو تصوير العادات والقيم الكبرى التى تتبادلها القبيلة جيلا بعد جيل من خلال وصايا الآباء للأبناء :

ان الأعز أبانا كان قال لنا ... أوصيكم بثلاث اننى تلف
الضيف .. أوصيكم بالضيف ان له ... حقا على فأعطيه واعترف
والجار أوصيكم بالجار ان له ... يوما من الدهر يثنيه فينصرف
وقاتلوا القوم ان القتل مكرمة ... اذا تلوى بكف المعصم العسرف(١)

ثم هاهى الحكمة التى يدفع بها الشيخوخة وعناؤها :

لعمرك ماطول هذا الزمن ... على المرء الا عناء معن
يظل رجيما لريب المنون ... وللسقم فى أهله والحزن
فهل يمنعنى ارتياد البلا ... د من حذر الموت أن يأتين
أليس آخو الموت مستوثقا ... على وان قلت قد أنشان(٢)

ان كل هذه الصور تقرأ اليوم ويمكن لنا التمتع بها من جديد مع أنها مضى عليها أكثر من أربعة عشر قرنا ، وتلك حالة فريدة فى الآداب العالمية كلها فأبناء اللغة الفرنسية أو الانجليزية أو الألمانية لايستطيعون أن يفهموا ويتمتعوا بآدابهم الا للفترات التى تعقب القرن الخامس عشر على أحسن تقدير ، أى لايستطيعون الصعود أكثر من خمسة قرون ، فاذا أتيح لنا فى أدبنا ولغتنا هذا البعد الزمنى الفريد ، أفلا ينبغى أن يكون إقبالنا على تراثنا أشد ، واستفادتنا منه أعمق ، ونسجنا على منواله دافعا لنا الى مزيد من الجودة ؟ .

---

(١) أى اذا كان الانسان يسقط عن دابته بمعنى ضافت أمامه السبل .
(٢) أنساه : آخره وأجله .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الحلقة الرابعة

شعر الصعاليك

قدمت فى ١٩ فبراير ١٩٨٦م

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

شعر الصعاليـــــك

يظل الشعر واحدا من فنون التعبير التى يلائمها مناخ معين فـــى لحظة الابداع وفى محور الابداع وفى طريقة تصويره ، والشعراء علـــى اختلاف أجيالهم ولغاتهم يحاولون الاقتراب من دائرة هذا المناخ، الـذى لايحمل بدوره حدودا مرسومة ولاخطوطا واضحة . وانما يحمل ملامح عذبـــة متداخلة ، أقرب الى ملامح لحظات الحلم السعيدة التى تستعصى غالبـــا على الامساك بهـــا .

لكن واحدة من السمات التى يمكن الاقتراب منها لهذه الظاهرة هى سمة " التوسط " فالشعر كلام يقع بين حدى التماسك الشديد فى الكـــلام المنطقى والتفكك التام فى لغة الهذيان ، ولغته الفنية تقع وسطا بيـــن حدى الصدق والكذب ، ولحظات ابداعه تحمل قدرا من التوتر يقع وسطا بين الاستسلام التام والغليان المدمر ، ومن خلال هذا كله يصطنع الشعر لغته الخاصة وخياله الخاص ومنطقه الخاص لكى يصل فى النهاية الى رسم عالم لايقبله ولايرفضه ، لايماثله ولايغايره ، وانما يوحى بمزيج من ذلك كلـــه وفى ذلك تكمن العظمة المثالية المنشودة فى الفن .

من هذه الزاوية يبدو " شعر الصعاليك " فى العصر الجاهلى نمطـــا شديد القرب الى جوهر الفن . فهو شعر ولد فى لحظات توتر حادة ، مـــن جماعة تعيش بطبيعة تكوينها على حافة المجتمع ، وتحتل بهذا موقعـــا أصبح الفن الحديث الآن يجد فيه منبعا ثرا للابداع الفنى ، ومناخـــا ملائما لتصوير حالات التفرد فى الجماعة البشريـــة .

وينبغى فى البدء ألا يخدعنا مصطلح " الصعاليك "فيرتبط بظـــلال الكلمة الحاضرة ، فالصعاليك فى القديم كانوا جماعة من الفتيـــان الشجعان المتمردين على تقاليد القبائل والعيش فيها ،

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

للنظم الاجتماعية السائدة ، ومن ثم فقد اختطوا لأنفسهم طرائق في العيش مختلفة عن طريقة الجماعة بل ومتصادمة بها ، وكانوا في معيشتهم أكثر قربا من الطبيعة ومن كائناتها الحية ، وهم بهذا كله قد اكتسبوا سمعة طيبة جعلت واحدا مثل معاوية الخليفة الأموي يتمنى كما يقول - صاحب الأغاني - أن لو أتيحت له فرصة المصاهرة الى ذرية الصعاليك ، وجعلت عبدالملك بن مروان يتمنى لو كان هو نفسه من نسلهم وجعلت الخليفة المنصور يروى بنفسه نوادرهم .

هذه الجماعة مثل شعرها جانبا هاما من جوانب الشعر الجاهلي ان لم يكن من حيث الكم ، فهو من حيث المذاق ، والتأثير الذي يحتاج الى الكشف عن بعض جوانبه ، وهذا التأثير يبدو أنه قديم قدم مانعرفه من الأدب الجاهلي نفسه ، فها هو الأصمعي يذهب في احدى الروايات الى أن كثيرا من شعر امرىء القيس انما هو لصعاليك كانوا معه ، وفي هذه الرواية دون شك كثير من المبالغة ولكن فيها أيضا كثير من الاشارة الى احتمالات وجود من الصعاليك مجهولين تفرقوا على فترات العصر الجاهلي المختلفة وربما لم تصلنا من أخبارهم الكثير .

واذا كانوا قد تناثروا تاريخيا على امتداد العصر ، فانهم تناثروا جغرافيا على امتداد الصحراء ، ولكنهم تجمعوا بالقرب من نقاط الخصب فيها واتخذوا هم لأنفسهم من الصحراء نقاط تمركز كانوا من خلالها يغيرون على هذه البقاع الغنية في اليمن ونجد ويثرب ومكة والوديان المحيطة بها .

ويبدو من تتبع حركة الصعاليك ، أنهم تعارفوا فيما بينهم على

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

مناطق النفوذ ، فهذا هو عروة بن الورد ، يتحرك فى يثرب وشمال الجزيرة ولايتجاوزها الى نجد وتهامة الا قليلا .

أما مكة وماحولها من الوديان فهى من نصيب صعاليك هذيل وفهم ويستأثر الشنفرى ومعه صعاليك الأزد بوديان اليمن الخصيبة أما أعماق اليمن فهى مجال حركة السليك أعرف العرب بالصحراء وأسرع الأقدام عدوا فيها .

كيف كانت تتم حركة "التصعلك" بهذا المعنى الفنى والاجتماعى وكيف رسم شعرهم ذلك ؟

كانت الخطوة الأولى تمرد الفتى على حياة الجماعة التى يشيع فيها الظلم والهوان للفقراء المستضعفين . والتى تسودها العلاقات المليئة بالضغائن المبيتة ، فكان يؤثر العيش فى الصحراء مع الحرية والوحوش ، ويصور الشنفرى فى لامية العرب هذه الخطوة الأولى حين يقول:

أقيموا بنى أمى صدور مطيكم ... فانى الى قوم سواكم لأميل
وفى الأرض منأى للكريم عن الأذى ... وفيها لمن خاف القلى متعزل
لعمرك مابالأرض ضيق على امرىء ... سرى راغبا أو راهبا وهو يعقل
ولى دونكم أهلون: ذئب عملس ... وأرقط زهلول . وعرفاء جيأل
هم الأهل ، لامستودع السر ذائع ... لديهم ، ولا الجانى بما جر يخذل
وكل أبى باسل غير أننى ... اذا عرضت أولى الطرائد أبسل

فهو حين ترك القبيلة ووجد فى الأرض متسعا ، اختار أن يكون أهله الجدد ، الذئاب والنمور والحيات ، ووجد أنهم لايذيعون سرا حين يستودعونه ، وأنهم شجعان ، لكنه هو نفسه أشجعهم جميعا لكن مخالطة هذه

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

الوحوش والحياة فى تلك البيئة ، يتطلب التسلح بألوان معينة من الكفاءات البدنية والنفسية ، لاتتوافر للانسان فى الظروف العادية . ولقد روض الصعاليك نفوسهم وجسومهم فى تجربة بشرية قاسية حى ساووا وحوش الفلاة فى التمتع بصفاتها . فهم أولا عداءون ، لايبارون فى سرعتهم . وها هو ذا تأبط شرا يسارع الغزلان فى الصحراء فيسبقها وكان دائما يأخذ صيده منها من خلال الجرى على القدم .

وها هو أبو خراش ينزل يثرب ، فيجد بعض خيول الأثرياء تستعد للسباق ، فيراهن بدوره على أن يسبق أسرعها وعلى أن يفوز بالفرس الذى بسيفه مكافأة له ويكون السبق من نصيب الصعلوك .

ويرسم الشنفرى صورة له وللقطا أثناء التسابق فى الصحراء للوصول الى عين ماء ، ويصل قبلها على الرغم من أنه لم يجر بكل سرعته ، ويشرب النصيب الأكبر من الماء قبلها ، وتضطر هى أن تمد أعناقها الطويلة بعده فى الحوض حتى تلامس الماء والذى سبق اليه الصعلوك وشرب معظمه .

هممت وهمت ، وابتدرنا وأسدلت وشمر منى فارط متمهل
فوليت عنها وهى تكسو لعقرة يباشره منها ذقون وحوصل

والقوة شرط ضرورى لمن يعيش وسط الوحوش ، وعلى كثرة ماجسد الشعر العربى قوة الأبطال ضراوة وتماسكا وشجاعة - لم يبلغ ذلك التجسيد مافعله ، تأبط شرا " شاعر الصعاليك " حين صور صراعا قاسيا بينه وبين الغول ، ولابد أن نتذكر أن الغول حيوان خرافى ، أى أنه لاوجود له فى الحقيقة ، ولكن الشاعر يرسم صورة له ، وللمعركة القاسية التى انتهت بمقتل الغول ، يقول :

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الا من مبلغ فتيـــان فهـــم بما لاقيت عند رحى بطـــان
وانى قد لقيت الغول تهـــوى بسهب كالصحيفة صحصحـــان
فقلت لها : كلانا نضو أيـــن أخوسفر فخلى لى مكانـــى
فشدت شدة نحوى ، فأهـــوى لها كفى بمصقول يمانـــى
فأضربها بلا دهش ، فخـــرت صريعا لليدين وللجـــران
فقالت عد ، فقلت لها ، رويـدا مكانك اننى ثبت الجنـــان
فلم أنفك متكئا عليهـــا لانظر مصبحا ماذا أتانـــى
اذا عينان فى رأس قبيـــح كرأس الهر ، مشقوق اللســان
وساقا مخدج ، وشواة كلـــب وثوب من عباد أو شنـــان

والصور هنا تجسد معنى أن يخلق الشاعر عالمه الفنى الذى يتحرك داخله لينقل من خلاله لونا من الأحاسيس تولده تجربة فنية دقيقـــة ، والصورة المتخيلة التى رسمها تذكر بصور الأساطير الاغريقية القديمـــة للحيوانات الخرافيـــة .

على أن معايشة الصحراء نفسها والتغلب على عناصر الموت فيهـــا يتطلب دربة خاصـــة وها هو السليك يحاول التغلب على الجفاف القاتل فى صحراء اليمن الشاسعة حين يختار موسم الصيف القاحل ليمارس فيـــه من خلالها غزواته ، وحيث لاتستطيع الخيول نفسها ولوج الصحراء لأن الموت عطشا يتربص بها . ولكن الصعلوك يكون قد أعد عدته منذ فصل الربيع ،فيملأ بيض النعام بالماء البارد ويدفنه فى أماكن فى الصحراء يعرفها جيـــدا فاذا جاء الصيف كان هو وحده ملك الصحراء يستطيع فيها الحركة كما يشاء.

لكن هناك جانبا انسانيا وثوريا متألقا فى تجربة الصعاليك كانت

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الفوارق الطبقية الشاسعة دافعا قويا وراء وجودهم فى الوقت الذى يمتلك فيه أحد الأغنياء واديا مليئا بالأبل ، يوجد مئات الفقراء بجانبه قد يموتون جوعا ، ولايمتلك الواحد منهم أكثر من حبل يجر به جزءا من القطيع فى خدمة السيد ويستجدى قوت يومه ، يقول أحدهم :

وأنى لاستحى لنفسى أن أرى ... أمر بحبل ليس فيه بعير
وأن أسأل العبد اللئيم بعيره ... وبعران ربى فى البلاد كثير

ومن هذا المنطلق يأتى سعيهم للغنى ، ابعادا لشبح ذل الفقر، وتأتى أبيات عروة بن الوردة الخالدة :

ذريني للغنى أسعى فانى ... رأيت الناس شرهم الفقير
وأدناهم وأهونهم عليهم ... وان أمسى له حسب وفير
يباعده القريب ، وتزدريه ... حليلته ، ويقهره الصغير
ويلقى ذو الغنى وله جلال ... يكاد فؤاد لاقيه يطير
قليل ذنبه ، والذئب جم ... ولكن للغنى رب غفور

وحين يتاح المال للصعاليك يتحولون الى أسخياء وكرماء ،ويرى العرب أن حاتم الطائى لم يكن أكرم من عروة بن الوردة الذى يحكى عنه صاحب الأغانى ، أنه كان اذا نزل القحط بالناس يجمع المرضى وكبار السن والضعفاء ويوفر لهم المأوى والطعام حتى تعود اليهم العافية ومن اشتد عوده منهم اصطحبه معه فى السلب على أموال الأغنياء التى يأتى بها ليوزعها على الفقراء .

ان شعر الصعاليك ، وجه يبرز من الصحراء الجافة ، برمالها وجديتها وصلابتها وصراحتها ، ويظل بعيدا عن الزيف والمجاملة والرقة المصطنعة ، يظل نموذجا للشعر الجاهلى الأصيل .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الحلقة الخامسة

عصر صدر الاسلام والعصر الأمـــوى

الخريطة السياسية والاجتماعية والثقافيـة

قدمت فى ٢٦ فبرايـــــر ١٩٨٦م

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

عصر صدر الاسلام والعصر الأموى

الخريطة السياسية والاجتماعية والثقافية

يتطلب الالمام بالمناخ العام الذى ولد فيه الانتاج الأدبى فى هذين العصرين المتعاقبين ، رسم خريطة سريعة للتطور الهائل الذى لحق بالمجتمع العربى الاسلامى فى هذه الفترة التى لم تزد على مائة واثنين وثلاثين عاما .

ففى المجال السياسى تتغير خريطة الدولة من مجرد رقعة صغيرة فى قلب الجزيرة العربية تمثل نواتها المدينة وماحولها من القرى فى البداية الى كتلة تتسع شيئا فشيئا حتى تغطى شبه الجزيرة العربية فى نهاية حياة الرسول .

لكن هذه الخريطة تزداد اتساعا فى عهد الخلفاء الراشدين فى آسيا فتبلغ الأقاليم الواقعة فى الاتحاد السوفيتى الآن مارة بسهول العراق وبلاد ايران وفى افريقيا فتعبر البحر الأحمر وتشمل وادى النيل وبدايات الشمال الافريقى أما فى نهاية عصر الدولة الأموية فان مساحة الخريطة السياسية تشمل الشمال الافريقى كله وجزءا من قارة أوربا فى الأندلس وتمتد فى قارة آسيا حتى تبلغ حدود الصين وتغطى الجزر المعروفة فى البحار الدافئة وهى بهذا كله تمتد على معظم مساحة العالم المتحضر يومئذ .

وفى اطار هذه الحركة الدائمة للحجم السياسى للأمة ، توجد حركة داخلية يتغير فيها مركز الثقل داخل الدولة بتغير العواصم السياسية ، ففى هذه الفترة القصيرة يبدأ الثقل فى المدينة عاصمة الخلفاء الراشدين ، ثم ينتقل الى الكوفة فى عهد على بن أبى طالب ، والى دمشق بدءا من خلافة معاوية ، والى مكة فى عهد عبدالله بن الزبير ثم يستقر مرة أخرى فى دمشق حتى نهاية العصر الأموى .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

واذا كانت العواصم تمثل مراكز الثقل الرسمية ، فان القوى المناهضة لهذه المراكز كانت تتخذ الأقاليم البعيدة مسارح لأنشطتها ، فجماعات الخوارج والشيعة والزبيريين تتخذ من الحجاز والعراق وفارس مراكز لمناهضة الأمويين ، ويستعين كل فريق من المؤيدين أو المناهضين بشعرائه وخطبائه ، وفى هذا المناخ يولد الأدب السياسى لهذا الفكر. مع الحركة السياسية توجد حركة اجتماعية موازية ، تتمثل فى الهجرة الكبرى التى تنتشر فيها موجات من بدو الجزيرة الى المدن والأقاليم الحضرية التى فتحت ، ومن خلال ذلك يتم امتزاج العرب بالأجناس الأخرى ، ويتم اللقاء بين العادات والتقاليد ، والثقافات ، وينعكس ذلك كله على فترة الهدوء التى أعقبت قيام الدولة الأموية ، فتنشر المغنيات الروميات والفارسيات فى مدن الجزيرة ، ويكثر شعر الغزل الرقيق ، ويستبدل بعض الشعراء بمعنى الجهاد الذى شاع فى صدر الاسلام معنى آخر كما يقول شاعر الغزل العذرى جميل بن معمر :

يقولون جاهد ياجميل بغزوة ... وأى جهاد غيرهن أريد

لكل لقاء بينهن بشاشة ... وكل قتيل عندهن شهيد

واذا كانت المدن قد شغلت بالغناء - فى الحجاز خاصة - فان مدنا أخرى قد شغلت بمدارس الرأى والفقه والحديث ، فقد نشأت مراكز فكرية فى مكة والمدينة ودمشق وخراسان والكوفة والبصرة ، وبعضها يميل الى الاجتهاد وأعمال العقل ، وهؤلاء عرفوا بأصحاب القياس ، وفى مدارس هؤلاء وأولئك تثور قضايا حول القضاء والقدر ، حول الجبر والاختيار وهى فى جوهرها تعكس حيرة الجماعة الفكرية بين الاستسلام لحكم الأمويين الذين قتلوا بعض آل البيت وأخذوا السلطة فى يدهم وبين التصدى وحماية

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الحق النظرى الذى جاءت به الدعوة ، ولم يكن الشعراء بعيدين عن مجال النقاش فى هذه القضايا ، فالفرزوق يتابع حلقات الحسن البصرى وجرير يتابع حلقات ابن سيرين ، وذو الرمة ينتمى الى جماعة القدرية المرجئة ، وشعراء الخوارج تبدو فى شعرهم حدة الثوار وشجاعة الفرسان ، ولابعدم الأمويون بين الشعراء من يناصرهم ويمدحهم اعجابا بأبهة الملك أو طمعا فى صلات الخلفاء والأمراء ، ويظهر لآل البيت شعراؤهم المدافعون عن حقهم والمشايعون لهم .

الشعر والدعوة :

جاء الاسلام فوجد الشعراء يمثلون فى المجتمع أصواتا قوية مؤثرة أقرب ماتكون الى أجهزة الاعلام فى العصر الحديث ، ولهذا كان العرب يعتزون بنبوغ الشعراء بينهم . وكانت القبيلة تحتفل عندما يولد ولد أو تنتج فرس أو ينبغ شاعر ، ولقد حافظ على مكانة الشاعر ، ولعب الشعراء المسلمون دورا هاما فى الحفاظ على هيبة الجماعة الاسلامية ورد سهام أعدائها الى نحورهم ، وكان أبرز شعراء المسلمين فى العصر الأول: حسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وعبدالله بن رواحة وكانت تدور بينهم وبين شعراء الكفار نقائض شعرية وهى القصائد التى يتبادل فيها الشعراء الدفاع عن معتقداتهم ويحرصون على أن تكون قصيدة " الدفاع " على بحر وقافية قصيدة " الهجوم " .

عندما هزم المسلمون فى موقعة أحد .. هاجمهم شاعر المشركين عبدالله بن الزبعرى بقصيدة من بحر الرمل وعلى قافية السلام :

كم قتلنا من كريم سيد ماجد الجدين مقدام بطل
ليت أشياخى ببدر شهدوا جزع الخزرج من وقع الأسل

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

فيرد عليه حسان بن ثابت من نفس البحر والقافيـــة :

ولقد نلتم ونلنا منكـــــم وكذاك الحرب أحيانـــا دول
اذ شددنا شـــدة صادقـــــة فأجأناكم الى سفح الجبـــل
وتركنا فى قريـــش عـــــورة يوم بدر وأحاديـث مثـــل

ولكن تاريخ شعر المشركين ينتهى بفتح مكة ، فمن بقى منهم علـــى قيد الحياة يأتى الى الرسول تائبا معتذرا طالبا الصفح والغفـــران ، وتاريخ هذه الفترة يحمل لنا قصائد جميلة تنتمى الى هذا النهج أشهرها قصيدة كعب بن زهير فى مدح الرسول والتى يقول فيهـــا :

بانت سعاد فقلبى اليوم متبـــول متيم أثرها لم يفد مكبـــول
أنبئت أن رسول الله أوعدنـــى والعفو عند رسول الله مأمول
لاتأخذنى بأقوال الوشاة فلـــم آذنب وان كثرت فى الأقاويـل
ان الرسول لنور يستضاء بـــه وصارم من سيوف الله مسلـول

وينسهر الشعراء جميعا فى عصر الخلفاء الراشدين فى هذه الحركـة الشعورية العامة التى سادت الأمة جميعا ، والتى من خلالها أصبحـــت تقاليد الدين الجديـد سائدة ، وولدت فتوحاته لونا من الحميا فى كـل النفـوس أثرت على موسيقى الشعر فأصبحت فى معظمها رجزا يناسب ايقـاع الحرب ، وعلى اعداده فأصبح فى الغالب مرتجلا يناسب سرعة الأحداث ، ومن خلال هذه الخاصية فقد جزءا من الصقل الذى كان يحظى به فى الجاهليـة ، واتهم من النقاد بأنه أصبح شعرا لينا ثم سيطر على الشعر كذلك خلـق الدين الجديد الذى يحرم الفحش فى القول وتناول أعراض الناس فى الهجاء ، ومن هذا المنطلق حبس الخليفة عمر بن الخطاب الشاعر الحطيئة عندمـا

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

شكا الناس من شدة وقع لسانه عليهم ، ولم يشفع للحطيئة ألا توسله بأطفاله الصغار فى قصيدة وجهها الى عمر من سجنه :

ماذا تقول لأفراخ بذى مرخ زغب الحواصل لاماء ولاشجر
ألقيت كاسبهم فى قعر مظلمة فاغفر عليك سلام الله ياعمر

لكن هذه الروح الدينية لن تطول كثيرا ، فمع محبى الدولة الأموية ، وتحول الخلافة الى نظام وراثى ملكى ، عاد الشعر الى طرق الموضوعات التى كان قد صمت عن الجهر بها زمنا ، عادت الخمر موضوعا أثيرا ، وانتشر الترف والطرب فى الأقاليم ، وحولهما انتشر شعر الغناء ، ثم شاعت ألوان من الغزل الرقيق تميز بها ذلك العصر ، وأصبحت سمة من سمات الأدب العربى وتنوع ذلك الغزل بين غزل تقليدى ، وغزل سياسى ، وغزل عذرى على النحو الذى تمتلىء به صفحات كتب الأقدمين .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

الحلقة السادسة

مقاييس جمال النص فى صدر الاسلام

وموقف الاسلام من الشعر

قدمت فى ٥ مارس ١٩٨٦م

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

مقاييس جمال النص فى صدر الاسلام وموقف الاسلام من الشعر

نزل القرآن وسط أمة يتمثل تراثها الحضارى الأول فى " الكلام الجميل " ويتجسد هذا الكلام على نحو خاص فى فن الشعر ، الذى كان " ديوان العرب " . وكانت معجزة هذا القرآن ذاته أنه كلام " أحسن " وأن من ينكرون وحيا سماويا عليهم أن يقبلوا التحدى ،ويحاولوا الاتيان بكلام مثله أو مثل جزئه أو حتى آية واحدة منه ، وكان معنى هذه المواجهة التى انتهت بعجز المتحدين ، والايمان بالنص المقدس ، أن هنالك تغايرا فى نسيج البناء الفنى لنوعى الكلام اللذين جرى التحدى بينهما القرآن والشعر ، وهذا التغاير الذى حاول البلاغيون فيما بعد الكشف عن طبيعته ، فهمه البعض على أنه " تضاد " وعداء ، وطوروا فهمهم فاستنتجوا أن روح النص القرآنى . لاتحبذ الاشتغال بالشعر ابداعا أو رواية أو دراسة ان لم تكن تقف ضد ذلك كله ، وربما تطور الأمر فى ذهن من يتابع امتدادات هذا الفرض الى احتمال وجود نوع آخر من التضاد بين الدين والفن الرفيع السامى الذى يمثله الشعر، وذلك كله ليس يحتاج الى توضيح - وذلك التوضيح يمكن أن يتم على مستويين :

الأول : اعادة فهم الأساس النظرى لموقف القرآن من الشعر .

الثانى: تتبع السلوك العملى والعلمى للجماعة الاسلامية ومعرفة دور الشعر فى هذه الفترة .

وفيما يختص بالنقطة الأولى ، فان الفهم السريع لبعض آيات القرآن مثل قوله تعالى : " والشعراء يتبعهم الغاوون " قد يؤدى الى التوصل الى فهم سريع ، ولكن استنتاج فهم دقيق يتطلب النظر الى مجمل الآيات التى وردت فى هذا الصدد وقد وردت فى القرآن فى ستة مواضع ، خمس منها مكية ، وواحدة فقط مدنية وردت فى آخر سورة مكية وهى سورة الشعراء ، والآيات الكريمة هى : -

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

(١) بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعـــــر: سورة الأنبيـاء

(٢) ويقولون أئنا لتاركوا الهتنا لشاعر مجنـــــون: سورة الصافـات

(٣) أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنـــــــون: سورة الطـور

(٤) وماهو بقول شاعر قليـلا ماتؤمنـــــــون: سورة الحاقـة

(٥) وما علمناه الشعر وماينبغى له أن هو الا ذكـــــر وقرآن مبين : سورة يســـن

(٦) والشعراء يتبعهم الغاوون ، ألم ترأنهم فى كـــل واد يهيمون ، وأنهم يقولون مالا يفعلـــون الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيـرا وانتصروا بعدما ظلمـــوا : سورة الشعراء

ويلاحظ أن ورود الآيات تركز فى فترة الدعوة المكية أى فى المرحلة الأولى ، ولم تأت الا آية واحدة منها فى الدعوة المدنية ، وفى ذلـــك اشارة الى أن هذه آيات وردت فى فترة معينة لكى تزيل لبسا معينـــا ، ولو أنها كانت تهدف الى زحزحة الشعر أو التقليل منه لما توقفت فـــى الفترة المدنية فالشعر لم يتوقف فيهـــا .

لكن اذا كانت الآيات تزيل لبسا ، فينبغى التساؤل فى ذهن من نشأ هذا اللبس ؟ وبناء الآيات الكريمة يشير الى ذلك بوضوح ، ففى أربـــع آيات من هذه الآيات الستة تأتى صيغة القول : " بل قالوا " ..ويقولون".. أم يقولون " وماهو بقول " ومعنى هذا أن هذه الدعوى يحكيها القـرآن على لسان الكافرين ويرد عليهم فالذى خلط بين القرآن والشعر ووصـــف الشعراء بالجنون وخلط الشعر بالافتراء بأضغاف الأحلام هم الكافـــرون ، والقرآن فى هذه الآيات يورد أقاويلهم ليرد عليهـــا .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

لكن واحدة من الآيات الأخرى ، لاترد على لسان الكافرين ، وهى أيضا تنفى الشاعرية عن الرسول ، بل وتعلن أنها صفة لاينبغى له الاتصاف بها ، وماعلمناه الشعر وماينبغى له " وحول هذه الآية دار حوار كبير بين علماء التفسير والبلاغة ولعل من أدقها ماذهب اليه البلاغى عالم الاعجاز القرآنى ، عبدالقاهر الجرجانى ، لقد ربط عبدالقاهر بين نفى صفة الشاعرية عن الرسول وبين اثبات الأمية له فى أن كلا الأمرين حالة خاصة به صلى الله عليه وسلم ، قصد بها تأكيد اثبات معنى الرسالة وكونها وحيا معجزا لانبوغا بشريا ، وأن الأمرين أيضا يشتركان فى أنه لاينبغى أن يعمم ماجاء بهما على غير الرسول من المسلمين ، فاذا كانت الأمية مثبتة له لكى تزيد فى تأكيد أن ماجاء به لم يكن عن طريق كتاب قرأه أو اكتتبه ، ومن ثم فهو وحى ، فليس معنى اثباتها له أن المسلمين مطالبون بالاقتداء به فيها ومن ثم بالعزوف عن التعلم ، فكل المبادىء والدلائل فى سلوك صاحب الرسالة وفى القرآن تشير الى عكس ذلك . كذلك الأمر أيضا بالنسبة للشعر . فلو أنه كان شاعرا قبل الدعوة لكان ممن يصيغون الكلمات الجميلة وينشدون الترقى فى مدارجها ولأمكن فى هذه الحالة عند اتيانه بالوحى أن يتسرب الى بعض النفوس الشك فى أن كلام الوحى الجميل الذى أتى به ، انما هو امتداد لمحاولات الشعر الجميل الذى كان يحاوله ومن هذه الزاوية فقد نفيت عنه الشاعرية تأكيدا للاعجاز دون أن يعنى ذلك نفيها عن غيره أو الدعوة الى عدم الترغيب فى الاقبال عليها أو اكتسابها أو العناية بحصادها رواية وحفظا ودرسا .

على هذا النحو حل العلماء السابقون هذا اللون من وهم التعارض الذى يمكن أن ينشأ فى النفس بين القرآن والشعر وهو حل يمكن أن يؤدى

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

على المدى البعيد الى فهم العلاقة الدقيقة بين الدين والفن الرفيع السامي .

اذا كان الجانب النظرى فى الاسلام لايحمل فى عمقه تناقضا بين الدين والشعر ، فان السلوك العملى لصاحب الدعوة ولأتباعه الأولين أكد هذا المفهوم ، فالاسلام فى جانبه العملى كون جماعة لها كيانها وكان لابد أن يستعين فى الحفاظ على هذا الكيان بوسائل العصر وأسلحته ، وكان من أقوى هذه الأسلحة فى القديم الشعر ، فالشاعر كان درعا لجماعته ومن ثم وجد الى جوار الرسول شعراء مثل حسان بن ثابت وعبدالله بن رواحة وكان حسان يلقى شعره من فوق منبر المسجد ويقول له الرسول: قل وروح القدس معك ، ويقول فى مواضع أخرى ان من البيان لسحرا وان من الشعر لحكمة .

ويظل الشعراء عنصرا هاما فى هذه الجماعة فى لحظات السلم ولحظات الحرب . ففى اللحظات الأولى لتكون الدولة . وفى الفترة التى عرفت بعام الوفود ، عندما كانت المدينة تستقبل وفود القبائل من أطراف الجزيرة العربية التى تسعى للتعرف على هذا الدين الجديد كانت كل قبيلة تأتى معها بخطيبها وشاعرها فيتكلمون أمام الرسول وينصت لهم ثم يدعو من بين المسلمين خطيبا شاعرا لكى يرد على القوم ..أما لحظات الحرب . فالشعر يحدوها رجزا فى البدء لبث الحميا فى النفوس ،ثم هو يقوم بدور المعارض للرد على شعراء الأعداء ، وعندما تدور الدائرة للجيش فالتعبير عن الزهو والفرحة بالنصر فاذا دارت عليه فالكلمات التى تخفف من ألم الجراح وتمنى بنصر قريب تأتى كذلك شعرا .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

لكن الشعر كانت له وظيفة أخرى دقيقة على المستوى العلمى هذه المرة ، وتلك الوظيفة هى التى تشير اليها العبارة التى تنسب الى عبدالله بن عباس ، والتى يقول فيها :"اذا قرأ ثم شيئا من كتاب الله فلم تعرفوه فاطلبوه فى أشعار العرب فان الشعر ديوان العرب " لقد ظل الشعر مرجعا شديد الأهمية فى الدراسات القرآنية على اختلاف مستوياتها . واذا علمنا أن مجال هذه الدراسات اتسع ليشمل ويغطى كل مايعرف بالدراسات اللغوية والاسلامية اليوم . أدركنا الى أى حد كانت أهمية الشعر وفائدته ، ومن هذه الزاوية اكتسب الشعر - الذى ظن فى البدء أنه يتعارض مع القرآن - أهمية تقترب من قداسة العلوم الدينية ذاتها .

لكن الشعر اذا كان قد أدى هذه الفائدة للدرس الدينى، فقد استفاد هو بدوره كثيرا من دقة التعبير ورقته وسموه فى الذكر الحكيم والسنة الشريفة ، واذا كان يجرى أحيانا تلمس بعض مظاهر التأثير والفائدة على مستوى المفردات والصور، فانه ينبغى أيضا تلمس هذا التأثير على مستوى الروح العامة والتى يمكن أن تلخص فى السعى الى الجمع بين " العمق والوضوح " لقد نعى الرسول على الثرثارين والمتفيهقين والمتشدقين ، ولام بعض الناس على أنه يقترب فى كلامه من طريقة سجع الكهان ، وكان نصوص الدعوة كلها تهدف أولا الى التوصيل والى التبليغ وكان ذلك يقتضى نشدان قدر كبير من البساطة والوضوح يتم الوصول اليه دون اخلال بالبلاغة والعمق والاعجاز ، وهذه هى النقطة الجوهرية التى كونت من أدب الدعوة الاسلامية قرآنا وسنة ، نموذجا أثر تأثيرا جوهريا على مسيرة الشعر العربى والأدب العربى ابداعا ونقدا .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الحلقة السابعة

الغزل فى العصر الأموى

قدمت فى ١٢ مارس ١٩٨٦م

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الغزل فى العصر الأموى

تلعب المرأة دورا هاما فى الشعر العربى القديم، ومع أن دورها فى كل شعر وفى كل عصر لاينكر الا أن دورها فى هذه الفترة وهذا الفن يتضح على نحو خاص ، ويرجع ذلك الى مجموعة من الأسباب تختلط فيها ظروف المجتمع بعناصر الفن . فالشعر العربى ، فى هذه الفترة ، وفى معظم فترات حياته ، كان شعرا غنائيا ، يدور محوره حول التجربة الذاتية وكانت هذه السمة أكثر ظهورا فى عصوره الأولى ، ومن هنا فلقد كانت المحاور البشرية المحيطة بالشاعر وعلى نحو أخص فى لحظات توتره الفنى تصدر عنها أعماله . كانت هذه المحاور هى التى تحظى بنصيب كبير فى اشعاع الشعر ، ينبع منها ويدور حولها ، وكان أهم هذه المحاور هو المرأة .

ولاشك أن ظهور المرأة فى الشعر ، لم تكن صورته الوحيدة هى " الغزل " فلقد كانت المرأة الأم ، والأخت ، والشرف الذى يحمى ، جزءا من النغمة التى تتصل بنسيج المجتمع العربى وفنه ، لكن المرأة المعشوقة ، والكائن الرقيق الذى ينبت فى الصحراء القاحلة الجافة كجزء من أزهارها النادرة ، يخفف فيها من قسوة الحياة ورتابتها كانت محور شعر الغزل بدرجاته المختلفة منذ العصر الجاهلى ، وشيئا فشيئا يزحف نفوذ الغزل فى المرأة لا ليحتل فقط القصائد الخاصة به ، ولكن ليحتل مقدمة " القصيدة " على نحو عام ، فها هى المرأة حبيب يوقف على ذكراه وأثاره ، وتوصف بقايا داره ، وتبكى على ساعات لقائه ، ويهون الرحيل بعدها فى الصحراء المجدبة الحارة ، على ناقة قوية صابرة لكى يلقى الشاعر ممدوحه الذى يحاول أن يتسلى عنده بلقائه عن مرارة هجر الأحباب ، ومن خلال هذا المدخل الذى يتكرر فى مطلع معظم القصائد ، تأتى المقدمة الغزلية التقليدية للقصيدة العربية وهى مقدمة تستمر سمة للقصيدة حتى مشارف العصر الحديث .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

هذا النوع من المقدمات سوف يستمر خلال العصر الأموى أيضا ، وسوف يحاول بعض الشعراء تلوينه وتحويله الى مايمكن أن يسمى بالغزل السياسى فاذا كان الشاعر القديم حين يغازل فى المقدمة محبوبة فانه لايصرح باسمها وانما يكسوها أحيانا اسما عاما مثل " ليلى " "وسعدى " " وهند " أو يكسوها صفة مثل المحب والحبيب والمعشوق ، ولقد يلاحظ على هذه الصفة غالبا لجوء الشاعر الى ايرادها بصيغة المذكر وكأن منطق الجمال اللغوى يريد أن يمر طيف الحبيبة تحت ستار من تمويه الصيغ بين التذكير والتأنيث ، اذا كان هذا هو الشأن عادة فى المقدمة الغزلية ، فان الشاعر الأموى أحيانا ، كان يلجأ الى تسمية من يتغزل فيها تسمية حقيقية ويختارها اسمها من نساء القبيلة التى يعاديها أو الجماعة السياسية التى يحاربها .

فالشاعر عبدالله بن قيس الرقيات كان قد انضم الى الزبيريين فى محاربة الأمويين ، وكانت قوة الزبيريين فى الحجاز تبدو فى بعض الأحيان خطرا حقيقيا على دولة الأمويين فى دمشق وها هى مجالس مصعب بن الزبير تعقد وينشده فيها شاعره عبدالله بن قيس الرقيات قصائد يفتتحها بالغزل فى نساء بنى أمية ، ويتحدث فى واحدة منها عن أم البنين زوج الوليدين يزيد ، يقول :

ألا هزأت بنا قرشية ... يهتز موكبها

رأت بى شيبة فى الرأ ... س منى ما أغيبها

فقالت : ابن قيس ذا ؟ ... وغير الشيب يعجبها

أحدثها فتؤمن لى ... فأصدقها وأكذبها

فدع هذا ولكن حا ... جة قد كنت أطلبها

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الى أم البنيـــــــن مـــنى يقربهـــا مقربهـــــا
أتتنى فى المنـــام فقلـــــــت هـــذا حين أعقبهـــــا
فكانت ليلة فى النـــــــوم نسمرهـــا ونلعبهـــــا
فأيقظنا منـاد فـــى صـــــلا ة الصبـــح يرقبهـــــا
فكان الطيف من جنيـــــــة لم يـــدر مذهبهـــــا

واذا كان هذا اللون من الغزل الأموى تشوبه السياسة وتوجيهاتها فلقد عرف هذا العصر لونين آخرين من الغزل ربما كانا رد فعل للسياسة أكثر منها استجابة لها . كان ثقل السياسة قد انتقل فجأة من الحجاز بعد أن كان عاصمة النبوة والخلفاء الراشدين الى دمشق حيث استقر معاوية وخلفاؤه وسط أتباعه ومؤيديه من جند الشام وخلف ذلك الانتقال فراغا هائلا ، أرادت له الدولة الأموية أن يمتد ويستمر ، وشاعت ألوان من الطرب والغناء والمتعة أقبل عليها الشباب ، وبدأ فى ظلالها شعر الغزل والحب يغطى رقعة أوسع من جسد القصيدة العربية ، لكنه ظل مع ذلك حائرا ، فهو حينا يبدو متأثرا بالقوانين الأخلاقية التى جاء بها الدين الحنيف والتى تحدد على ضوء الحلال والحرام سبل التعامل مع المرأة ، ومن خلال تفاعل هذه القوانين مع العواطف الملتهبة نشأ مايسمى " بالحب العذرى " ، وحينا آخر يبدو الغزل متحررا من أى ظل لأى قانون ، فتلقى أشعار المغامرات الواقعة أو المتخيلة فى سفوح الأماكن المتدسة ذاتها ، وخير من يمثل هذا اللون الأخير عمر بن أبى ربيعة كان عمر شاعرا رقيقا ، وكان غزلا متأنقا يمثل نزعه الترف المجازى فى هذه الفترة ، ويمثل مانسميه الآن بالنرجسية وهو الاعجاب بالنفس وشعره يشف بوضوح عن هذه الظاهرة ، فالمرأة هى التى تطلبه ،

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

والفتيات يشرن اليه حين يسير ، ويخفن من ألا يستجيب لهـــن :

تقول وعينها تـــذرى دموعـــا ... لها نسق على الخدين تجـرى
آمن سخط على صـــددت عنـــى ... حملت جنازتى وشهدت قبـــرى
أشهر أكله الا ثلاثـــــا ... أقمت على مصار منى وهجـرى

والنزعة الفنية التى تشيع فى شعر عمر بن أبى ربيعة ، هى الميل الى الشعر القصصى . فالقصيدة عنده تأخذ شكل حكاية تتقدم أطرافها فى نسق تشويقى ، ترضى دون شك ، أذواق المترفين ، الذين يبحثون فى الشعر عن شىء آخر غير الغريب والحكمة المتفردة ، ولنستمع الى جزء من هذه المغامرة الغريبة ، التى قادته لرؤية حبيبته وزيارتها ليلا وسط خيـام أهلها فى الحى البعيد ، وكيف أنه كان ينبغى عليه أن يترقب خارج خيام الحى حتى تجىء اللحظة المواتية ، حين يهدأ الصوت ، ويغيب القمـــر ، ويعود الرعاة ، والعاشق المتيم يتسلل مثل جباب الماء لايكاد يسمـــع تردد الأنفاس فى صدره :

فلما فقدت الصوت منهم وأطفئـــت ... مصابيح شبت بالعشاء وأنـــوُر
وغاب قمير كنت أرجو غيابـــه ... وروح رعيان ونوم سمـــــر
ونفضت عنى العين أقبلت مشيـــة ... الحباب وشخص خيفة القوم أزور
فحييت اذا فاجأتها فتولهـــت ... وكادت بمكنون التحية تجهـر
وقالت ، وهمت بالبنان فضحتنـــى ... وأنت امرؤ ميسور أمرك أعسر
أربك اذ هنا عليك الم تخـــف ... رقيب وحولى من عدوك حضـــر

ويقضى العاشق جزءا من الليل متسللا على نية أن يعود قبل أن يكشف الصبح سرهما ، ولكن الوقت يمضى ، فلا يحسان الا وضوء الفجر وحركـــة

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

اليقظة فى القبيلة تحيط بهما ، ولم يبق أمامهما الا المواجهة أو الحيلة ، وتختار الفتاة جانب الحيلة تجنبا لكوارث المواجهة وتستشير أختيها ، فتشير صغراهما بأن يلبس الشاعر العاشق ملابس فتاة وأن يتسللن به حتى يخرجنه دون أن نلتفت اليه :

فكان ردائى دون ماكنت أتقى ثلاث شخوص كاعبان ومعصر

وكانت وصية الفتيات له بعد أن نجا هذه المرة أن يحتاط فى المرة القادمة .

اذا جئت فامنح طرف عينيك غيرنا لكى يحسبوا أن الهوى حيث تنظر

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

الحلقة الثامنة

الغـــزل العـــذرى

قدمت فى ١٩ مـــارس ١٩٨٦م

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

الغزل العـــذرى

ارتبط الغزل العذرى بالعصر الأموى ارتباطا شديدا من حيث النشأة وان كانت بعض بوادره قد عرفت فى العصر الجاهلى . وارتبط من حيث الدوافع بذلك النوع من الصراع الذى شهدته نفوس العشاق بين تقاليد البيئة وواقع الهوى ، وهى تقاليد امتد جزء منها فى التراث الاجتماعى وتغذى جزء آخر على التعاليم الدينية .

كانت التقاليد القبلية . ترى فى أمر حب الشعراء على نحو خاص رأيا يخضع لقانون صارم ، فالحب وخلجات النفوس مباحة . والحديث عنها همسا مسكوت عنه ، والتصريح بالأمر بين الفتيان قد يمر ، لكن مالا يسكت عليه هو أن يصرح الفتى بهواه شعرا . ساعتها سوف تتناقل الشفاه والألسن حديثة ، وسوف يذيع من الأمر ماكان مكتوما ، وقد تسمع القبائل المجاورة أن ابنة فلان عاشقة وقد تذهب الأقاويل الى أبعد من هذا . وقد يطأطىء شيخ القبيلة الرأس وذلك كله ناجم عن التصريح بالحب شعرا لاعن الحب فى ذاته ، ومن هنا جاء قانون القبيلة الصارم : من كتب شعرا فيمن يحبها قبل الزواج بها ، حرمت عليه . وكان من الصعب أن يبتعد فتيان الشعراء عن الحب فهم فتيان كالآخرين وربما زادوا عليهم قدرا من رهافة الحس ، وكان من الصعب أيضا أن يمتنع الشعراء عندما يحبون عن أن تفيض مشاعرهم شعرا فالكلمة عند الفنان شفاء يلجأ اليه من لوعة المشاعر ، وكان من الصعب كذلك أن تمتنع القبائل عن أن تطبق قانونها الصارم فالأمر متعلق بالدفاع عن الشرف ، وهو معنى كان يمثل حجر الزاوية فى كثير من تقاليد القبيلة .

وكان لابد اذن أن يكثر الشعراء العشاق الضحايا ، يحبون ، ويصرحون بالحب شعرا ، ويحاولون الاقتران بمن أحبو فتمنعهم تقاليد القبيلة

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

من الزواج ، فيقضون العمر محرومين من الاتصال الجسدى ، ويعيشون مع ذلك أوفياء لذلك الحب العذرى ، فتفيض نفوسهم بذلك الشعر الجميل الذى يعد من أعذب ما أنتجته البادية ومن أرق ماحمل رسالة العصر الى بقية العصور وذلك الأدب الى بقية الآداب .

من خلال هذه الزاوية وصلتنا أصوات شعرية جميلة مثل صوت قيس بن الملوح مجنون ليلى ، وجميل بثينة ، وكثير عزة ، وقيس لبنى ، وعروة بن حزام حبيب عفراء ، وهى أسماء تصلنا غالبا وقد اقترن فيها اسم الشاعر باسم حبيبته ، وكأنهما شكلا معا تزاوجا فى الأسماء عبر التاريخ الطويل حين استعصى عليهم أن يتزاوجوا بالأجساد خلال تاريخ عمرهم القصير، وذلك لون من التعويض العادل الذى يهبه التاريخ الواعى للفن الجيد.

ذلك اللون من الغزل العذرى ترتبط به عادة " قصة " من قصص الهوى العنيف . وهو من خلال ذلك يتميز فنيا عن ألوان الشعر الأخرى مدحا أوهجاء أو وصفا وحتى عن الغزل العادى ، فالذى يلفت نظر القارئ أو السامع فى هذه الألوان كلها الشعر فقط ، لكنه فى الحب العذرى يلفتت الى الشعر والى ماوراء الشعر ، الى قصة الحرمان التى أدت اليه ، ومن ثم يكثر الاهتمام برواية هذا اللون من الشعر ورواية قصص الحب الكامنة وراءه ، وكثرة الرواية هذه مدعاة فى ذاتها الى أن يتداخل الجانب الأسطورى مع الجانب الحقيقى فى القصة والشعر معا ، ومن هنا يأتى ذلك التخوف التقليدى الذى أعلنه الدراسون قدماء ومحدثين حول مدى الدقة فى صحة بعض قصص الحب العذرى وأشهرها دون شك قصة " مجنون ليلى " .

يقول أبو الفرج الأصفهانى عند تعرضه فى كتاب الأغانى لأخبار

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

مجنون بنى عامر : وأن أذكر مما وقع الى من أخباره جملا مستحسنة ، متبرئا من العهدة فيها ، فان أكثر أشعاره المذكورة فى أخباره ينسبها بعض الرواة الى غيره ،وينكسبها من حكيت عنه اليه ، واذا قدمت هذه الشريطة برئت من عيب طاعن ومتتبع للعيوب "وهذا التحفظ القديم ردده أيضا كثير من المحدثين حتى وصل الأمر الى انكار وجوده قيس وليلى جملة .

والواقع أن هذا النقاش وذلك التحفظ يتناسى حقيقة هامة - هى أننا لسنا أمام شعر فقط ، ولكننا أمام قصة شعرية وجدت من حيث كونها قصة ونصوصا فى تراث الأمة المنتمى الى ذلك العصر ، ومن هذه الزاوية فلا ينبغى اللجوء الى " الحقيقة التاريخية " كثيرا ، لنعرض عليها صحة وجود " الحقيقة الفنية " أو عدم صحتها ، اننا مع هذا اللون أقرب مانكون الى الأدب القصصى القديم فى الأمم الأخرى - مع احتفاظ كل أمة بطريقتها - ومع الأدب القصصى الشعرى لانتساءل ان كان الأبطال قد وجدوا أم لا ، فأبطال " الالياذة " و " والأوديسا " الملحميون ، وأبطال المسرحيات القديمة والوسيطة التاريخيون لايطرح حولهم سؤال الوجود أو العدم . وانما تطرح أسئلة أخرى حول المتعة الفنية .

من هذه الزاوية فان قصة مجنون ليلى ، وشعره العذرى كما ترويها كتب التراث ، تقدم متعة فنية عالية لاجدال فيها .

كان قيس وليلى طفلين جارين ، ولد الحب بينهما منذ الطفولة المبكرة وكانا يرعيان الغنم معا ، فكثر اللقاء وتمكن الحب .

تعلقت ليلى وهى ذات ذؤابة ... ولم يبد للأتراب من صدرها حجم
صغيران نرعى اليهم ياليت أننا ... الى الآن لم نكبر ولم تكبر الهيم

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ويفرح الصبى حين يرسله أبوه ليطلب شيئا من دار ليلى وتنسى الصبية نفسها وهى تستقبل العاشق الصغير ، يهبط ضيوف على أسرة قيس ليلا فترسله أمه ليطلب شيئا من السمن من بيت ليلى ، وتقوم هى لتفرغ له فى اناء معه مايطلبه ويتحدثان وينسيان ويسيل السمن على الأرض ليغطيها دون أن يشعر العاشقان ، وعندما يذهب ليطلب شعلة من النار ، تنتهى الشعلة فى يده وتحترق أصابعه دون أن يحس لأن ليلى تتحدث اليه .

ويبدأ الحب يشتعل ، والشعر يفيض عن العاشق :

نهارى نهار الناس حتى اذا بدا ... لى الليل هزتنى اليك المضاجع
أقضى نهارى بالحيث وبالمنى ... ويجمعنى والهم بالليل جامع
لقد نبتت فى القلب منك محبة ... كما نبتت فى الراحتين الأصابع

أو يقول :

أعد الليالى ليلة بعد ليلة ... وقد عشت دهرا لاأعد الليالیا
أرانى اذا صليت بممت نحوها ... بقلبى وان كان المصلى ورائيا
ومابى اشراك ولكن حبها ... كعود الشجا أعيا الطبيب المداويا
أحب من الأسماء ماوافق اسمها ... وأشبهه أو كان منه مدانيا

وتتسرب أنباء الشعر العذرى الى القبيلة ، ويتأزم الموقف ويقرر الأب ألا تكون ليلى من نصيب قيس ، ويضطرب العاشق ويجمع أهله ويذهبون لخطبة ليلى ، ولكن قرار القبيلة لايرد ، ولكى يقطع الأب كل طريق ، يسارع فيزوج ليلى الى رجل اسمه ، ورد ، وبلغ الخبر قيسا فجن وزال عنه عقله ، وأصبح يخلط فى الكلام ويمشى فى الصحراء ممزق الثياب يهذى بكلام المجانين ، فاذا ذكرت له ليلى عاد الى رشده وتحدث حديث العقلاء وروى الشعر .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ونصح بعض الناس أباه أن يحج الى البيت الحرام وأن يجعله يتعلق بأستار الكعبة ويدعو الله أن يشفيه من حبها . وذهب قيس الى الحج ، وفى منى سمع رجلا ينادى امرأة اسمها ليلى ، فلما وصل الاسم سمعه خر مغشيا عليه وأنشد بعد هذا حين أفاق :

عرضت على قلبى العزاء فقال لى ... من الآن فاياس لا أعزك من صبر
اذا بان من تهوى وأصبح نائيا ... فلا شىء أجدى من حلولك فى القبر
وداع دعا اذ نحن بالخيف من منى ... فهيج أشواق الفؤاد ومايدرى
دعا باسم ليلى غيرها فكأنما ... أطارا بليلى طائرا كان فى صدرى

وعندما حملوه الى أستار الكعبة ليدعو الله بأن يشفيه تعلق بها وقال : اللهم لاتشفنى من حب ليلى أبدا ...

وعاد بعدها هائما على وجهه فى الصحراء : لايأكل الا ماينبت فى البرية ولايشرب الا مع الظباء اذا وردت مناهلها وطال شعر جسده ورأسه وألفته الظباء والوحوش فكانت لاتنفر منه " .

وتختلط الغزال فى عينه بليلى فهو يحدثها قائلا :

. فعيناك عيناها وجيدك جيدها ... ولكن عظم الساق منك دقيق

وهو يصور هذا المشهد الدقيق لصراع يجرى أمام عينيه بين ذئب مفترس وظبية وديعة ، ولايرى فى الذئب الا غريمة ، ورده الذى أخذ منه ليلى ، وفى الظبية الا ليلى نفسها ولهذا فهو يطارد الذئب ويطلق عليه سهما قائلا حتى يشار للضحية الرقيقة :

رأيت غزالا يرتعى وسط روضة ... فقلت أرى ليلى تراءت لنا ظهرا

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فياظبى كل رغدا هينا ولاتخف فانك لى جار ولاترهب الدهرا
فماراعنى الا وذئب قد انتحى فأعلق فى أحشائه الناب والظفرا
فطوقت سهمى فى كتوم غمزتها فخالط سهمى مهجة الذئب والنحرا
فأذهب غيظى قتله ، وشفى جوى بقلبى ان الحر قد يدرك الوترا

وهو لايكتفى بربط مشاعره بالكائنات الحية فى الطبيعة ولكنه يتجاوز ذلك الى الطبيعة الصامتة ، فهو يتنسم الهواء القادم من نجد حيث هاجرت الحبيبة ، ونسيم روائح القادمين من هذه الديار ، وهو يرى السيل المنحدر من أعلى الجبل فتجرى دموعه لأنه أيقن أن هذا السيل مر على واديها قبل أن يصل الى حيث هو :

جرى السيل فاستبكانى السيل اذجرى وفاضت له من مقلتى غروب
وماذاك الا حين أيقنت أنه يكون بواد أنت فيه قريب
يكون أجاجا دونكم فاذا انتهى اليكم تلقى طيبكم فيطيب
ولاخير فى الدنيا اذا أنت لم تزر حبيبا ولم يطرب اليك حبيب

ثم هو يطوف مايطوف ويعود الى الجبل الذى كان يرعى عنده الغنم مع ليلى وهما صبيان ، جبل التوباد ، كان يجيء الى ذلك الجبل فيقيم به ، فاذا تذكر أيام كان يطيف هو وليلى به جزع جزعا شديدا ، واستوحش فهام على وجهه حتى يأتى نواحى الشام ، فيقول للناس : بأبى أنتم : أين التوباد من أرض بنى عامر ؟ ويهيم طويلا حتى يصل اليه فاذا رآه قال :

وأجهشت للتوباد حين رأيته وكبر للرحمن حين رآنى
وأذريت دمع العين لما عرفته ونادى بأعلى صوته فدعانى

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فقلت له قد كان حولك جيـــــرة وعهدى بذاك الصرم منذ زمـــان

فقال مضوا واستود عونى بلادهـم ومن ذا الذى يبقى على الحدثـان

على هذا النحو تقدم هذه القصة الشعرية نموذجا جيدا وممتعـــا لذلك اللون من الغزل الذى تألق فى هذه الفترة وحمل اســـــــــــ " الغزل العـــذرى " .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الحلقة التاسعة

مدخل لدراسة الأدب فى العصر العباسى

قدمت فى ٢٦ مـــــــارس ١٩٨٦م

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

مدخل لدراسة الأدب فى العصر العباسى

درجت كتب تاريخ الأدب العربى على أن تقسم ذلك الأدب الى عصور تتوازى مع التغيرات السياسية الكبرى التى مرت بها أنظمة الحكم فى العالم العربى ومن خلال هذه التقسيم الشائع تتوازى العصور الأدبية مع العصور الدينية والسياسية ، فهناك العصر الجاهلى ثم صدر الاسلام فالأموى فالعباسى ، ثم تتفرع العصور بعد ذلك تبعا لتفرع أنظمة الحكم وتفتت الخلافة فهناك الأندلسى فى أسبانيا والفاطمى فى مصر ومن بعده الأيوبى فالمملوكى فالعصر الحديث ، والواقع أن التقسيم على هذا النحو غير دقيق ، فليس هناك توازٍ حتمى بين العصور السياسية والعصور الأدبية فقد تبدأ الظاهرة الأدبية فى عصر وتمتد فى الذى يليه وعلى سبيل المثال فان الظواهر الفنية تتشابه كثيرا فى العصر الجاهلى وعصر صدر الاسلام ، وعلى العكس من ذلك يمكن أن يشتمل عصر سياسى واحد على أكثر من ظاهرة أدبية ، وخاصة اذا امتد امتدادا طويلا كما حدث فى العصر العباسى الذى نتحدث عنه .

" العصر العباسى - ١٣٢ - ٦٥٦ هـ " .

من سقوط الدولة الأموية الى سقوط بغداد على أيدى التتار .

وهى فترة زمنية تجاوزت خمسة قرون وشملت معظم الظواهر الأدبية التى عرفها تاريخ الأدب العربى ، وكبار الشعراء والناثرين الذين يعتز بهم .

ولهذا فقد اتجه كثير من الباحثين الى تقسيم هذا العصر تقسيمات كثيرة ، هنالك مثلا التقسيم الى :-

(١) العصر العباسى الأول = ١٣٢ - ٢٣٢ = قوة الخلفاء .

(٢) العصر العباسى الثانى = ٢٣٢ - ٣٣٤ = سيطرة الجنود الأتراك .
أو العصر التركى)

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

(٣) عصر بنى بويه (٣٣٤ - ٤٤٧ = ازدياد نفوذ الشيعة .
أو عصر الدويلات

(٤) العصر السلجوقى ٤٤٧ - ٦٥٦ = عودة جزء من نفوذ الخلفاء

لكن هذا التقسيم الثانى يقلل فقط من حجم الفترة الزمنية التى يشتمل عليها كل عصر، ولكنه يعيد الربط بين التقسيم السياسى والتقسيم الأدبى .

ومن هنا فانه يمكن اللجوء مرة أخرى الى تقسيم آخر يحاول الاعتماد على الظواهر الفنية فى العصر ، ويمكن أن يكون على النحو التالى :

(١) عصر ثورة التجديد : بشار وأبو نواس ومن عاصرهما .
(٢) عصر الحركة المعاكسة : أبو تمام والبحترى وابن الرومى .
(٣) عصر الاستقرار : المتنبى ، أبو فراس ، أبو العلاء ، الشريف الرضى .

وليست هذه فى النهاية هى الامكانيات الوحيدة للتقسيم ، فهناك أيضا امكانية النظر الى التيارات الفكرية الرئيسية التى كانت تسود العصر مثل تيار فكرة المعتزلة أو فكر الأشاعرة أو الأفكار الفلسفية أو شيوع الثقافة العربية أو الثقافة الأجنبية ... الخ .

وذلك يعنى أن دراسة هذا العصر ينبغى أن تعنى بالوقوف أمام الظواهر الفنية فيه ، وأن تجمع أشتات الظاهرة لكى تشكل منها كلا :

أهم ظواهر ذلك العصر : -

أول مايلفت النظر فى العصر العباسى ، أن الأدب المكتوب باللغة

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

العربية ، تحول من كونه أدبا يعبر عن الروح العربية الخالصة وحدها في العصر الأموى ، الى كونه أدبا يتسع مجاله من خلال دائرتين : -

(أ) التعبير عن الروح الاسلامية : -

ولانعنى بهذا التعبير مايمكن أن يفهم منه من ظلال دينية وانما نعنى به اتساع مجال تعبير الأدب ليشمل الشعوب التى دخلت الاسلام ولم تكن عربية واتخذت العربية لسانا وأصبح الأدب العربى، من خلالها وبها يعبر عن مناخ جديد .

وأوضح مثال لهذه الظاهرة ، الاتصال الذى حدث بين الأدبين العربى والفارسى ، وظهر من خلاله جماعة من الكتاب الفرس من أصحاب اللسانين ، يكتبون الأدب العربى ويضيفون اليه خلاصة تجاربهم فى الأدب الفارسى ، وأيضا يترجمون روائع الأدب الفارسى الى العربية ، ومن أبرز هؤلاء : عبدالله بن المقفع صاحب كتاب كليلة ودمنة وغيره من المؤلفات والمترجمات التى عكست هواء جديدا فى نتاج الأدب العربى .

(ب) التعبير عن الروح الانسانية : -

ولم يقف الأدب العربى عند هذا الحد وانما امتد من خلال حركة الترجمة النشطة الواعية فنقل كثيرا من تراث العالم القديم الى اللسان العربى ، نقل عن اللغة الهندية فى مجال الرياضيات والطب والفلك ، وعن اليونانية فى مجال الفلسفة والنقد وعن السريانية فى مجال الفكر الدينى ، ومن خلال هذا كله اكتسب

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

اللسان العربى طاقة كبيرة استطاعت أن تختزن مجمل ثقافة العالم القديم وأن تؤديها الى الحضارة الأوربية في العصور الوسطى فتتوهج شعلة الحضارة من جديد بفضل حفظ العرب لها ، وقد تم كل ذلك فى اطار العصر العباسى .

(ج) ميلاد وازدهار النثر الأدبى : -

كانت الأمة العربية تعرف الشعر كفن مهيمن على أدبها تحفظه وتتناقله الألسن ويتفق مع طبيعة هذه الأمة غير الكتابية ، وكانت تعرف قليلا من النثر لأن التدوين لم يكن شائعا ، ولأن حفظ النثر واستيعابه ليس سهلا ، فلم يعرف النثر الأدبى عند العرب فى الجاهلية الازدهار ، وقد تقدم قليلا فى العصر الأموى بعد النزوع الى انشاء الدواوين ولكن الميلاد الحقيقى للنثر وازدهاره كان فى العصر العباسى .

كانت كتابات ابن المقفع حول " أدب السياسة " سواء فى كتابة " الأدب الصغير " أو " الأدب الكبير " أو كتابه " كليلة ودمنه " الذى ترجمه عن ترجمة فارسية لحكايات بيدبا الهندية ، كان هذا النشاط من ابن المقفع هو بداية النثر الفنى الحقيقى ، وكانت كتابات الجاحظ التى تميزت بطابع خاص يعكس تنوع الثقافة فى عصره ، سواء فى مجال الأدب والابداع مثل كتابة " البيان والتبيين " أو فى مجال العلوم مثل " كتاب الحيوان " أو فى مجال دراسة الظواهر الاجتماعية مثل " كتاب البخلاء " أو فى مجال الدراسات الدينية مثل رسائله الكثيرة التى وضعها فى علم الكلام ،

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ومنها " رسالة فى نظم القرآن " كان هذا كله ايذانا بأن الشعر لم يعد يقف وحده فى ميدان الانتاج الأدب العربى ، وأن النثر رمز العلم المدون قد دخل الميدان واحتل مكانته .

(د) ثورة الشعر وتنوع وسائله :-

غير أن الشعر ذلك الجنس الأدبى القديم لم يقف مكتوف اليدين ، وانما ساير مادخل على العصر من تطور فنى نتيجة لتطور الحياة من ناحية ولاتصالها بالآداب الأجنبية من ناحية أخرى ، ولشيوع ألوان من الفنون الجميلة بدرجاتها المختلفة ومذاقاتها المتنوعة التى تولدت عن اختلاط العرب بغيرهم من الشعوب ومعرفتهم لطرائق تمتعهم الفنى .

ولقد ترك ذلك كله آثارة على التطور الكبير فى الشعر العربى خلال ذلك العصر ، فهناك تطور فى استخدام الصورة الشعرية ، ومناقشة لمدى وفاء الصورة فى بنائها القديم لحاجة العصر وثقافته وفنونه ، وقد قاد التطور فى هذا الاتجاه الجماعة الذى عرفت " بشعراء البديع " أو بالشعراء المحدثين من أمثال بشار بن برد ومسلم بن الوليد وأبى نواس ، وأبى تمام وعبدالله بن المعتز ، وهناك محاولات التجديد فى هيكل القصيدة سواء من حيث بناؤها ، كما حدث فى محاولات أبى نواس من اطراح الوقوف على الأطلال كلازمة تقليدية فى بدء القصيدة ، أو من حيث موسيقاها كمحاولات أبى العتاهية لكتابة الشعر على أوزان غير مألوفة وشورته فى وجه من يذكره بالعروض قوله " انى أكبر من العروض " وكذلك محاولات الشعراء المولدين لاشاعة ألوان من الأوزان القصيرة ، أو اللجوء الى التنويع فى القوافى خلال القصيدة الواحدة ، ولايقل

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

التجديد فى المجالات التى ترتادها القصيدة عن التجديد فى المجالات الأخرى ، وشعر ابن الرومى فى مجمله نموذج على ذلك التجديد فى مجال " الواقع الحى " وشعر أبى العلاء نموذج ثان على ذلك التجديد فى مجال " التأمل والفكر " والمتنبى هو قمة النماذج التى أفادت من مجمل محاولات التجديد السابقة عليه ، وارتادت بالشعر العربى فى العصر العباسى آفاقا لم تتح له من قبل .

ان هذا الحديث الشديد الاجمال عن " الأدب فى العصر العباسى " لايقدم الا الخطوط العريضة الكبرى لأكبر العصور وأشدها تألقا فى تاريخ الأدب العربى .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الحلقة العاشرة

ترجمة شخصية أدبية

عبدالله بن المعتز

٢٤٧ - ٢٩٦ هـ

قدمت فى ٢ ابريل ١٩٨٦م

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ترجمة شخصية أدبية

عبدالله بن المعتز

٢٤٧ - ٢٩٦ هـ

فن الترجمة للشخصيات الأدبية فن قديم يمتد فى تاريخ الفكر والأدب ويصطنع لنفسه مناهج تقترب حينا من مناهج التاريخ وحينا آخر من مناهج الأدب ، وتستقل حينا ثالثا فتكاد تكون لنفسها علما مستقلا هو علم " سير الرجال " ، وتستمد الترجمة مادتها عادة من كتب التاريخ المدونة ومن الروايات الشفهية وتمتد فيما يختص بالترجمة الأدبية فتعتمد على جزء من الانتاج الأدبى للشخصية التى يجرى الحديث حولها ، وتتفاوت درجة الاعتماد على ذلك الانتاج من مذهب الى مذهب آخر ، حتى ان بعض مناهج كتابة السير تدعو الى الاعتماد الكامل عليه ومحاولة رسم صورة للرجل من خلال انتاجه ، وبعضها الآخر ينحى الانتاج جانبا باعتباره يعبر عن متطلبات فنية معقدة لاتعكس بالضرورة حياة الكاتب ، وانما قد تهرب منها ، وقد ترسم صورة مثالية لم تتحقق أو صورة كان يحلم الكاتب بتحقيقها .

والشخصية التى ندير حولها الحديث اليوم شخصية مزدوجة الأبعاد هى شخصية :

عبدالله بن المعتز
الأمير الشاعر الكاتب
٢٤٧ - ٢٩٦ هـ

فهناك على الأقل ذلك الازدواج الثلاثى فى الشخصية ، الامارة والشعر والكتابة ، وهو ازدواج برزت بعض جوانبه فى شخصيات تاريخية أخرى ، ولكنها اكتملت على نحو خاص فى شجعته ابن المعتز .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فكثير من الأمراء والملوك اقتربوا من الأدب والشعر بحكم ثقافتهم وبحكم علاقة الحكام بالأدباء وبعض منهم كتب قدرا منه ، وكتب تاريخ الأدب تروى مختارات متناثرة من تأليف الأمراء والشعراء وتنسب أبياتا من الشعر الى معاوية أو عبدالملك بن مروان أو الوليدولاتكاد تخفى الخفاء الراشدين لكنه الى جانب ذلك يوجد هؤلاء الأمراء الذين تمكنوا من الشعر فلم يعد ينسب اليهم مجاملة أو استكمالا للسرد ولكن باعتبارهم شعراء حقيقيين ، وممن يمكن أن يصنف فى عداء الأمراء الشعراء المشهورين :

امرؤ القيس (الملك الضليل) ، وأبو فراس الحمدانى ، (الأمير الأسير) والمعتمد بن عباد ، والشريف الرضى ، وفى عداد هؤلاء يأتى عبدالله بن المعتز ، الذى ولد فى بيت الخلافة العباسية فأبوه كان خليفه وجده كان الخليفة المتوكل وقد أثرت هذه النشأة عليه تأثيرا خاصا ، جعلت ثقافته واهتمامه وصياغته الشعرية تحمل آثار الترف والقصور، وأصبح ذلك سمة من سماته فأبياته تفوح منها صور المسك والعنبر والأخبار الكريمة ، وعندما قال أحد الناس للشاعر ابن الرومى معاصره وعدوه التقليدى ، : لم لاتكتب صورا مزدهية تصور ابن المعتز عندما يصف الهلال قائلا :

انظر اليه كزورق من فضة قد أثقلته حمولة من عنبر

فأجاب ابن الرمى : انما يصف ابن المعتز ماعون بيته فهو أمير وابن خليفة ، ولكننى أصف ما أشاهده فأجيد وانشد ابن الرومى صورته المحكمة :

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ان آنس لا آنس خبازا مررت بـــــه
يدحو الرقاقة من اللمح بالبصـــــر
مابين رؤيتها فى كفة كـــــــرة
وبين رؤيتها قوراء كالقمـــــــــر
الا بمقدار ماتنـــداح دائـــــرة
فى لجة الماء يلقى فيه بالحجـــــر

ولقد امتد تأثير الامارة على شعر ابن المعتز لا ليشمـــل فقـــط طبيعة الصور التى كان ينسجها ، وانما ليمتد فيشمل طبيعة الموضوعـات التى يهتم بها ، فابن المعتز فتى وسيم أمير يستطيع آن يجد كثيرا مـن مطالب العيش قريبة منه ، وهو متذوق جيد للموسيقى ، محب للغناء، ولما يستلزمه جو الغناء والسماع فى ذلك العصر من حب للشراب وحديث عنه ومن حب للقيان والمغنيات وحديث يمتد عن حب الجمال بألوانه المختلفـة وشعر إبن المعتز يمتلأ بهذا كله ويسرف فيه أحيانا ، والى جانبه هـذه اللمسة الرقيقة للطبيعة ومظاهرها وهذا التنبه لأسرارها الدقيقـة .

يحكى صاحب الأغانى ، يقول حدثنى جعفر بن قدامه قال ، كنت آسـرح مع عبدالله بن المعتز فى يوم من آيام الربيع بالعباسية فى مدينـة بغداد والدنيا كالجنة المزخرفة ، فقال عبدالله :

حبذا آذار شهـــــرا فيه للنور انتشـــــار
ينقص الليل اذا جـــا ء ويمتـــد النهـــار
وعلى الأرض اخضـــرارا واصفـــرارا واحمـــرار
فكان الروض وشيـــى بالغت فيه التجـــار
نقشـــه آس ونســـر ين وورد وبهـــار

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

وهى صور ترسم جانبا من الطبيعة التى تحيط بابن المعتز فى قصور الخلافة المتسعة .

ولم تكن معرفة عبدالله بن المعتز بالغناء مجرد استمتاع ولهو ، ولكنها كانت معرفة علم دقيق وتتبع للخصائص وكتابة عنها فى بعض الأحايين ، يقول أبو الفرج الأصفهانى فى كتاب الأغانى : " وكان عبدالله حسن العلم بصناعة الموسيقى والكلام على نغمها وعللها ، وله فى ذلك وفى غيره من الآداب كتب مشهورة ، ومراسلات جرت بينه وبين عبدالله بن طاهر وبين بنى حمدون وغيرهم تدل على فضله وغزارة علمه وأدبه ، ولقد أثر ذلك القرب من الغناء والموسيقى على شعره الذى كان يأتى أحيانا رقيقا قريبا من لغة الحياة يصلح أن يغنى ، فهو الذى يقول :

زاحم كمى كمه فالتويا ... وافق قلبى قلبه فاستويا

وطالما ذاقا الهوى فاكتويا ... ياقرة العين ، وياهمى ، ويا...

لكن جانبا آخر من جوانب تأثير الامارة على الشعر تمثل فى تلك الالتزامات السياسية التى تجعل الأمير الشاعر يتتبع المشاكل السياسية التى تحيط ببيت الخلافة ويساهم بالكتابة حولها فالخلافات الفرعية بين الخلافة والجماعات المناوئة للحكم والثوارث الفردية أو الجماعية لأفراد الزنج أو الطالبين أو غيرهم والغزوات التى تشن عليهم أو على أعداء الدولة ، كل ذلك يجد صداه فى ديوان ابن المعتز ربما على نحو أوضح مما نجده عند شاعر آخر لم ينشأ فى قصر الخلافة .

على أن ابن المعتز ظل فى حياته الخاصة مع ذلك يحتفظ بدرجة بينه وبين مشاكل الحكم فى عصره ، فى الوقت الذى تزاحمت فيه الفتن على

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

بيت الخلافة العباسية ، ولم ينس أبدا أن أباه الخليفة المعتز ، قتل فى واحدة من هذه الفتن ، فظل مكتفيا بمكانة رفيعة له فى بلاط ابن عمه الخليفة المعتض .

لكن الظروف تقترب بها من بؤره الفتنة عند مايموت الخليفة المقتفى ، ويرى كثير من الناس أن ابن المعتز هو أحق الناس بأن يتولى الخلافة من بعده ، وينصب ابن المعتز بالفعل خليفة للمسلمين ولكنها خلافة لم تدم أكثر من يوم واحد ، فقد هجمت عليه الجماعات الموالية للمتقدر واستطاعت أن تنزع الخلافة منه ، ولم تكتف بذلك ، بل حكمت عليه بموته شنيعة على عهد قسوة الترك فى ذلك العصر فقد دقت خصيتاه حيا ثم ترك يموت صبرا وهو لما يبلغ الخمسين ، وهكذا سلبت منه الامارة أضعاف ما أعطته .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

الحلقة الحادية عشـــــرة

مدخل لدراسة الأدب الأندلســـــى

قدمت فى ١٦ ابريـــل ١٩٨٦م

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

مدخل لدراسة الأدب الأندلسى

يحتل الحديث عن الأندلس مكانة خاصة فى التاريخ العربى والاسلامى، فهو بمثل فترة ذات طابع خاص فى تاريخ هذه الأمة فترة امتدت منذ عبرت جيوش طارق بن زياد عام ٩١ هـ ، ٧١٠ م المضيق المعروف باسمه ونزلت على الشواطىء الجنوبية لأسبانيا والتقت بجيوش لذريق آخر ملوك القوط وهزمتها الى أن سلم أبو عبدالله محمد بن الحسن آخر ملوك بنى الأحمر مفاتيح قصر الحمراء آخر معقل للمسلمين فى مدينة غرناطة الى فرناندو الرابع فى أوائل عام ١٤٩٢ (نفس العام الذى اكتشفت فيه أمريكا) ولم يستطع الأمير الراحل أن يكتم دموعه وهو يلقى النظرة الأخيرة على الحمراء فوقف فى الموضع الذى يطلق عليه الآن بالأسبانية " زفرة العربى الأخيرة ، وقف يبكى ، وأمه عائشة الحرة تقول له :

فابك مثل النساء ملكا تولى لم تحافظ عليه مثل الرجال

ظلت هذه الفترة التى استمرت حوالى ثمانية قرون تطل فيها العربية والاسلام على رقعة هامة من أوربا . ومن خلال هذا الموقع ينتشر روح الحضارة والعلم فتصل الحضارة القديمة بالحضارة الحديثة وتترجم خلاصة الفلسفات والمعارف والآداب التى انتقلت من التراث الاغريقى القديم الى التراث العربى الوسيط ثم عبرت البحر الى الأندلس ، حيث كانت جامعاتها قبلة طلاب المعرفة من كل أرجاء أوربا وحيث تم من خلال هذا الاتصال أحكام الصلة وبناء الجسر الحقيقى الذى قامت عليه النهضة الأوربية الحديثة .

لقد ترجمت أمهات الكتب العربية الى اللاتينية فى الطب بدءا من القرن الحادى عشر ، فترجم كتاب الطبيب ابن الجزار وكتاب أبى القاسم الزهراوى عن الجراحة ، وترجم كتاب التيسير لأبى مروان بن زهر وظل

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

مرجعا فى الطب الايطالى حتى القرن السابع عشر وكذلك ترجم كتاب ابن رشد " الكليات " وكانت علوم الطب فى جامعة باريس تدرس وفقا للنظريات الاسلامية .

وكذلك كان الشأن فى علم الكيمياء الذى كان يسمى أحيانا علم جابر ، نسبة الى جابر بن حيان صاحب التآليف الأولى منه والتى كانت تدرس بدورها فى جامعات أوربا .

وسوف يظل التقدم العلمى فى مجال البحث والاختراعات مدينا للعالم الأندلسى عباس بن فرناس الذى عاش فترة عمر قصيرة فى القرن التاسع والذى شغل بالمخترعات فكان أول من صنع آلة لمعرفة المواقيت ، وصنع فى بيته قبة تشبه السماء وزودها بالآلات الفلكية التى تحدث البروق والرعود وجعل فى أعلاها نجوما وغيوما تبدو للناظر حقيقة ، وانتهى به الأمر الى فكرته المشهورة عن طيران الانسان تلك التى دفعته الى أن يكسو نفسه بالريش ويمد له جناحين ويطير فى الجو مسافات بعيدة ولكنه لم يحسن تدبير لحظة النزول على الأرض .

أقول هذا بين يدى الحديث عن الازدهار فى الأدب الأندلسى لأن الازدهار فى مجال العلوم لاينفصل عنه فى مجال الآداب فهما وجهان لنهضة واحدة ، وقد قدمت النهضة الأدبية الأندلسية للأدب العربى مجموعة من الشعراء والكتاب والمؤلفين على امتداء القرون الثمانية كانوا من أفضل من اعتز بهم الأدب العربى فى تاريخه .

فهذا ابن عبدربه الشاعر الذى عاش فى القرنين الثالث والرابع والذى كان يقارن بأبى تمام فى المشرق ويمتاز بقوة صياغة الشعر واتساع مدى خياله ، يقول فى وصف خيول جيش الأمير عبدالله :

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

ومغربة تغبر فى النقع كمتهـــا وتخضر طورا كلما بلها الرشح
تراهن فى نضح الدماء كأنمـــا كساها عقيقا أحمرا ذلك النضح
تطير بلا ريش الى كل صيحـــة وتسبح فى البر الذى مابه سبح
عليها من الأبطال كل ممـــارس يرى أن حد الحرب من بأسه مزح
يعدونه الأعداء كربا عليهـــم على أنه طلق لنا وجهه السمح

والى جانبه هناك من الشعراء الأندلسيين من يقترن اسمه باسم شاعر مشرقى مضارع له ، فهذا هو يحيى الغزال الذى يقترن اسمه عادة باسم أبى نواس ، ويقترن سلوكه الظريف شخصية شاعرية رقيقة ، وتكتسب أشعاره وخاصة فى فترة عمره المتأخرة سخرية ممزوجة بالمرارة ، فهو يتحدث عن الحب فى فترة الشيخوخة قائلا :

قالت أحبك ، قلت كاذبـــة غرى بذا من ليس ينتقـــد
هذا كلام لست أقبلـــه الشيخ ليس يحبه أحـــد
سيان قولك ذا وقولك ان الريح نعقدهـــا فتنعقـــد
أو أن تقولى النار باردة أو أن تقولـــى المـــاء يتقـــد

أما ابـــن دراج القسطلى مـــن شعـــراء القـــرن الرابع الهجرى فهو يقارن فى المغرب بالمتنبى فى المشرق فى طول نفسه وقوة شاعريته وغزارة انتاجه ، وقد كان ملازما للوزير الحاجب المنصور بن أبى عامر الذى يطلق عليه من قبل المؤرخين المحدثين " بسمـــارك القرن العاشر " وكانت أوصاف ابن دراج لحروب المنصور أشبه بما صنعه المتنبى مع سيف الدولة الحمدانى فى المشرق ، لكن أشعار ابن دراج دائما ، يطغى عليها ذلك اللون من الاحساس بالحنين الى الأهل ولوعـــة الغربة حتى فى مدائحه للمنصور بن أبى عامر : يقول فى احدى قصائـــده

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

اليه متحدثا عن زوجته وأطفاله :

ولله عزمى يوم ودعت نحوه ... نفوسا شجانى بثها وشجاها
وربة خدر كالجمان دموعها ... عزيز على قلبى شطوط نواها
وبنت ثمان لايزال يروعنى ... على النأى تذكارى خفوق حشاها
وموقفها والبين قد جد جده ... منوطا بحبلى عاتقى يداها
تشكى جفاء الأقربين اذا النوى ... ترامت برحلى فى البلاد فتاها

أما رقة الوزير الشاعر ابن زيدون وأشعاره التى حملتها الى كل مكان حلت فيه اللغة العربية وأشعار محبوبته ولادة بنت المستكفى . فهى أشهر من أن يشار اليها ، ومن منا لم تمر بمسمعه يوما هذه النونية العذبة لابن زيدون :

أضحى التنائى بديلا من تدانينا ... ونأب عن طيب لقيانا تجافينا
بنتم وبنا ،فما ابتلت جوانحنا ... شوقا اليكم ولاجفت مآقينا
يكاد حين تناجيكم ضمائرنا ... يقضى علينا الأسى لولا تأسينا
حالت لفقدكم أيا منا فغدت ... سودا وكانت بكم بيضا ليالينا
اذ جانب العيش طلق من تآلفنا ... ومورد اللهو صاف من تصافينا
واذ هصرنا غصون الانس دانية ... قطوفها فجنينا منه ماشينا
لم نعتقد بعدكم الا الوفاء لكم ... رأيا ولم نتقلد غيره دينا
لاتحسبوا نأيكم عنا يغيرنا ... ان طال ماغير النأى المجينا

وحين تودعه معشوقته ولادة بنت المستكفى قائلة :

ودع الصبر محب ودعك ... ذائع من سره ما استودعك
يقرع السن على أن لم يكن ... زاد فى تلك الخطا اذ شيعك

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

يا أخا البدر سناء وسنـــــا حفظ الله زمانا أطلعـــــــك
ان يطل بعدك ليلى فلكـــم بت أشكو قصر الليـــل معـــــك

ان شعراء الأندلس المشهورين أكثر من أن يحيط بهم العد فى عجالة قصيرة من أمثال ابن خفاجة وابن الزقاق وابن عائشة وابن سهل والأشبيلى، وابن عمار والمعتمد بن عباد . ولم يقتصر دور الشعراء الأندلسيين فى اثراء الشعر العربى على الكم الهائل الذى أضافوه اليه خـــلال هذه القرون الثمانية وانما امتد الى ذلك الغنى والثراء الذى ألحقوه به سواء فى صوره وأخيلته أم فى موسيقاه وتنوعها ، وقد امتد هـــذا التنوع حتى ساعد فى خلق لون موسيقى تميز به الشعر الأندلسى وهو لون الموشحات الذى يختلف فى فنه وتشكيله وموسيقاه عما هو شائع فى القصيدة العربية وتلك قضية تستحق أن تقف أمامها وقفة مستقلـــة .

كذلك أضاف الأدب الأندلسى الى تراث الأدب العربى ، ذلك اللـــون من النثر الفنى الغنى الذى وجد صداه لافى العالم المتحدث بالعربية فحسب ولكنه امتد الى ماوراءه مساهما فى الابداع الانسانى العام ومـــن أشهر نماذج هذا اللون كتاب " طوق الحمامة " للفقيه الظاهرى ابن حزم، وهو الكتاب الذى سير فيه أغوار النفس البشرية فى واحدة من أجمـــل العواطف وأدقها وهى عاطفة الحب ، بالاضافة الى أنه كان فيه رائـــدا من رواد السيرة الذاتية فى الأدب العالمـــى .

ويضاف اليه فى مجال " النثر الابداعى " كتاب التوابع والزوابع لابن شهيد ، وهى قصة خيالية يحكى فيها ابن شهيد رحلة له فى عالـــم الجن اتصل خلالها بشياطين الشعراء فناقشهم وناقشوه وحاورهم وحاوروه

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

وعرض أثناء ذلك بعض آرائه فى اللغة والأدب وكثيرا من نماذج شعره ونثره ، وهو لون من الأدب يمثل فى تاريخ الأدب المقارن مكانة هامة تتصل جذوره الى قصة الاسراء والمعراج وتمتد الى أبى العلاء المعرى ويتأثر بها من الأدباء العالميين دانتى فى الكوميديا الالهية وملتن فى الفردوس المفقود ، وهو حديث يحتاج بدوره الى وقفة مفضلة .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

الحلقة الثانية عشرة

مدخل لدراسة النقد الأدبى عند العرب

قدمت فى ٣٠ ابريل ١٩٨٦م

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

تتشابك دراسة النقد الأدبى مع كثير من فروع الدراسات الأدبية التى تمهد له وتستفيد من نتائجه ، فهنالك هذه الصلة القوية التى توجد بين نظرية الأدب والنقد الأدبى ، حيث تعتمد " نظرية الأدب " على الأصول الفنية والخطوط العامة لكل جنس أدبى ، وهى أصول لاتستقر الا من خلال مناقشات تحليلية قد تستمر على مدى أجيال متتابعة ويسهم فيها النقد الأدبى بدور كبير .

فى الوقت ذاته فان الصلة بين " تاريخ الأدب " و " النقد الأدبى" تبدو صلة حميمة فمؤرخ الأدب لايستطيع تصنيف الأعمال الأدبية ووضع كل عمل فى اطاره تمهيدا لدراسته مع نظائره الا من خلال المعرفة الدقيقة بالنقد الأدبى ، والناقد الأدبى بدوره لابد أن يضع فى اعتباره التاريخ الأدبى للنص الذى يتعرض له ، ومدى افادة النص من التراث الفنى الذى سبقه ، ومدى قدرته على تأويل ذلك ، ثم ان النقد الأدبى من ناحية ثانية يستطيع أن يتنبأ بالمسار الذى يمكن أن يأخذه التاريخ الأدبى فى المستقبل من خلال علائم فنية يهتدى اليها ويكشف عنها ويحاول أن يوجه مسار الحركة الأدبية من خلالها ، والعلاقة كذلك بين النقد الأدبى والأدب المقارن تشتد وخاصة فى مناهج الأدب المقارن الحديثة التى تود أن تهتدى الى علائم الروح الفنية الكامنة فى آداب الشعوب المختلفة ونقاط الالتقاء بينها ، وسبيلها الأول الى الاهتداء الى هذه العلائم يكمن فى دراسة النقد الأدبى والاهتمام به .

ولاتقتصر صلة النقد الأدبى على هذه العلوم وحدها ، فهو يمتد بالطبع الى علوم اللغة بدرجاتها المختلفة ، ويمتد كذلك الى الفلسفة التى تساعده على توسيع مجال رؤيته وتخطى الحاضر الى المستقبل ،

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

وقد عرف تاريخ النقد الأدبى شخصيات ربطت بين النقد والفلسفة ربطا وثيقا لعل من أشهرها فى القديم أرسطو ، وفى الحديث " سارتر " وعرفت كذلك محاولات جادة لايجاد هذا الربط فى تراثنا النقدى .

ومنذ العصر الجاهلى عرفت ألوان من النقد الأدبى ، كانت تتم على أيدى الشعراء أنفسهم فى معظم الأحايين وقد أخذ ذلك عدة مظاهر منها :

(١) القصائد الحولية المحككة : وهو مصطلح ظهر فى العصر الجاهلى وأطلق على انتاج مجموعة من الشعراء ، عرفت بالتدقيق الشديد فى قصائدها ، ومراجعتها حتى ان القصيدة كانت تستغرق حولا كاملا ومن هنا سميت حولية ، ومن أشهر من طبقوا هذا النظام أوس بن حجر ، وزهير ابن أبى سلمى وابنه كعب والحطيئة .

(٢) الاحتكام : -

كان الشعراء يلجأون الى من يفاضل بينهم وكان الحكم يأخذ لقب " القاضى " ويصدر حكمه بتفوق أحد الشاعرين أو النصين ، ومن أشهر قضايا النزاع ماحدث بين امرىء القيس وعلقمة بن عيدة حين احتكما الى " أم جندب " زوجة امرىء القيس ، فأنشداها ببيتين فى وصف الفرس ، قال امرؤ القيس :

فللسوط ألهوب وللساق درة وللزجر منه وقع أخرج مهذب(١)

وقال علقمه :

فأدركهن ثانيا من عنانه يمر كمر الرائح المتحلب(٢)

(١) الألهوب : اجتهاد الفرس فى سيره ، أخرج : ذكر النعام . مهذب : سريع
(٢) الرائح : السحاب ، المتحلب : المتساقط .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

فقالت لزوجها : علقمة أشعر منك لأنك أجهدت فرسك بصوتك وساقك أما هو فقد أدرك فرسه الهدف دون أن يضربه سوط أو تتبعه ساق .

(٣) الأسواق الأدبية : -

وهى تقليد امتد من الجاهلية الى الاسلام ، ومن أشهر أسواق الجاهلية ، سوق عكاظ ، التى كان يجتمع فيها الشعراء فينشدون ويتلقون النقد ملاحظة لهم أو عليهم من جمهور سامعيهم أو من كبار الشعراء وقد كان النابغة يجلس فى السوق وتضرب له قبة حمراء ويجتمع حوله الشعراء فيستمع اليهم ويحكم فيهم وقد امتد هذا التقليد الى العصر الاسلامى حيث كان سوق " المربد بالبصرة يشهد فى العصر الأموى حلقة لجرير وأنصاره وحلقة للفرزدق وأنصاره ، يتبادل الشاعر فيها ماعرف باسم" النقائض " ومن خلال الاستماع تولد الملاحظات النقدية العابرة ، كأن يقول الأخطل : " جرير يغرف من بحر والفرزدق ينحت من صخر " .

(٤) مجالس الشعراء : -

كانت مجالس الشعراء فى العصر الجاهلى والاسلامى تدور فيها ملاحظات الشعراء بعضهم على بعض ، وهى ملاحظات لاتخلو من قيم نقدية ، ومن ذلك مايروى من اجتماع عمر بن أبى ربيعة وكثير عزة وجدالهما حول شعر الغزل وكان كل منهما له طريقة خاصة فيه فقال كثير لعمر" انك تتغزل فى المرأة أولا ثم تتركها وتتغزل فى نفسك ، أخبرنى عن قولك :

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

قالت تصدى له ليعرفنـــــا ثم اغمريه يا أخت فى خفـــــر
قالت لها قد غمرته فأبـــى ثم اسبطرت فى أثـــــرى
وقولها والدموع تسبقهـــا لتفسدن الطواف فى عمـــــر

وعلق قائلا : أتراك لو وصفت بهذا حرة أهلك ألم تكن قد قبحت وأسأت ، وانما توصف الحرة بالحياء والاباء والالتواء والخجل والامتناع.

هذه الأشكال النقدية التى ظهرت فى العصرين الجاهلى والاسلامى ، بدأت تتسع وتأخذ شكل التأليف العلمى المنظم فى العصر العباسى ، نتيجة لكثير من العوامل التى طرأت على الابداع الأدبى ذاته فى ذلك العصر .

كان الشعر قد بدأ يستعيد جزءا من مكانته التى كانت قد اهتزت قليلا فى أوائل ظهور الدعوة الاسلامية بل وأصبح الشعر عنصرا هاما من عناصر الثقافة الاسلامية يساعد على حفظ اللغة التى بدأت تهدد فصاحتها انتشار الدعوة فى مناطق كانت أعجمية واختلاط اللهجات ، وسارعت القبائل تجمع كل قبيلة شعرها ، وسارع الرواة يجمعون الأشعار القديمة ، وفى خلال هذا الاسراع ، ظهرت فكرة " الانتحال " أى تأليف شعر معاصر ونسبته الى القدماء وكان لابد للنقد الأدبى أن يؤدى دوره فى حماية الشعر من الدس عليه ، وظهر فى هذه الفترة كتاب " طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحى ت : ٢٣١ هـ " وناقش الكتاب قضايا هامة ظلت موضع اهتمام النقاد حتى القرن العشرين ، من أمثال قضية الانتحال والشك فى الشعر المنسوب الى عاد وثمود باعتبارهما قبيلتين عاشتا فى زمن شديد القدم الى جانب أنهما كانتا فى جنوب الجزيرة العربية ، حيث كانت اللغة السائدة هى لغة حمير ، وهى تختلف الى حد ما عن لغة مضر فى الشمال .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

وبالاضافة الى ذلك يتنبه الكتاب الى أهمية عنصر الزمان ، فيقسم الشعراء الى طبقات ويجعل للجاهليين طبقاتهم وللاسلاميين كذلك ويشير الى فكرة القدماء والمحدثين وضرورة أن يعطى كل فرصته وهى فكرة سوف يطورها من بعده ابن قتيبة ، ويشير كذلك الى تأثير المكان فى الشعر والى تأثير الظروف كالحروب على غزارة الانتاج الشعرى .

من زاوية أخرى تدور معركة التجديد فى الشعر العباسى يقودها " الشعراء المحدثون " من أمثال : بشار بن برد ، أبو نواس ، مسلم بن الوليد ، أبو تمام ويثور جدل كبير حول مدى " الحداثة " فى الصور التعبيرية التى أدخلوها الى مجال الشعر العربى ، وفى هذا الاطار يظهر : " كتاب البديع لابن المعتز ت : ٢٩٦ هـ " .

يرجع فيه مؤلفه من خلال منهج نقدى بلاغى الى أصول التراث العربى القديم فى الجاهلية والاسلام ليكتشف أصول هذه الصور التعبيرية فيه وليسجل أن المحدثين لم يزيدوا على أن بالغوا فى استخدامها ولن يتوقف هذا الجدل حول "الجديد والقديم " وانما سوف يتزكر حول شخصيتين يمثل منهما اتجاها وهما " أبو تمام والبحترى ، ويظهر كتاب : " الموازنة بين أبى تمام والبحترى للأمدى ت : ٣٧١ هـ " لكى يقدم نوعا من النقد المقارن يعرض فيه صاحبه أنصار حجج كل من الشاعرين ، ثم يوازن بين شعريهما وان كان الأمدى يميل الى جانب البحترى قليلا .

ولاينتهى هذا القرن الرابع حتى يظهر كتاب ، " الوساطة بين المتنبى وخصومه للجرجانى ت : ٣٩٢ " وهو يمتد فى مناقشته الى أعماق التراث ، فيقف أمام شعراء كأبى نواس وابن الرومى وأبى تمام وأمام قضايا كالشعر والفلسفة والسرقات . ويعلن أن اهتمامه بمحاسن الشاعر سوف يفوق اهتمامه بعيوبه .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

الحلقة الثالثة عشرة

نظرية الأسلوب فى البلاغة العربية

قدمت فى ٧ مايو ١٩٨٦م

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

نظرية الأسلـــوب
فى البلاغة العربيـــــة

استقرت دراسات البلاغة العربية القديمة فى ثلاثة فروع متميزة ، تحمل أسماء علوم ثلاثة هـــى :

علم المعانـــى ، علم البيـــان ، علم البديـــع .

وكانت هذه الفروع تقابلها ثلاثة مجالات فى دراسة التعبير الأدبى هـــى مجالات :

الأسلوب والتركيب ، التصويـــر ، التحسيـــن .

واذا أمكن القول بأن دراسة التصوير التى اهتم بها علم البيـــان ، ودراسة التحسين التى اهتم بها علم البديع قد وجدت اهتماما كبيرا من علماء البلاغة الأقدميـن ، فانه يمكن القول بأن دراسة الأسلـــوب أو التركيب قد وجدت اهتماما مقدسا من هؤلاء العلماء لأنها اتصلت فى بعض مراحلها بدراسة هدف دينى وهو " الاعجاز القرآنى " وفى ظل هذا الاهتمام ولد " علم المعانى " وولدت كذلك النظرية الجمالية التى تقف وراءه والتى تعد من أدق النظريات النقدية اللغوية سواء فى تاريخ الفكـــر العربى ، أو التفكير النقدى العالمى ، وهى تلك النظرية التى عرفـت باســـم :

" نظرية النظم لعبدالقاهر الجرجانـــى " .

وتعود قصة النظرية التى هى أساس علم المعانى ، الى بحوث علمـاء التوحيد وهو علم العقائد حول السر الذى يكمن وراء روعة الأسلـــوب القرآنى فيجعله معجزا لايرقى اليه مستوى الكلام البشرى أيا كانت روعته ، ولقد كثرت الدراسات حول هذه النقطة ، وانتهى عبدالقاهر وهو عالم مـن علماء الأشاعرة الى تقليب الفروق الممكنة بين الكلام الالهى والكـــلام البشرى ، فرأى أن القرآن لايختلف عن الكلام البشرى ، لافى حروفه ولافـى كلماته ، ولافى المعانى الجزئية للكلمات ، ولايلجأ الى الغرابة ومـــع

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

ذلك فقد تحدى أعداءه أن يأتوا بآية واحدة من مثله فعجزوا ، وينتهى عبدالقاهر الى أن بعض السر فى اعجاز القرآن ، يعود الى ماسماه نظرية النظم وأقام على أساسه علم المعانى .

وتتلخص هذه النظرية فى أن لكل تركيب معانى نحوية يرتكز عليها ، واللغة أودعت فى كل صيغة من صيغها قوة معنوية معينة ، يمكنها التعبير عن جانب معين من جوانب النفس ، والبلاغة العالية عليها أن تدرك ليس فقط الطاقة الكامنة فى كل صيغة ، ولكن الى جانب ذلك تدرك أفضل امكانيات التناسق والنظم بين الصيغ المتجاورة ، ونتساءل الآن :

" مامعنى الطاقات والمعانى الموجودة فى الصيغ " :

نحن ندرك أن الكلمة مثلا يمكن أن تكون فعلا أو اسما أو حرفا ، ولكل قسم جانب من جوانب المعنى فالفعل يتصل بالحركة والتغير والاسم يتصل بالثبات والحرف يتصل بالربط ، لكن هذا التقسيم العام تدخل تحته تفريعات كثيرة جدا ، فان كان الفعل حركة ، فهناك فرق بين الماضى والمضارع ، وبين المبنى للمجهول والمبنى للمعلوم ، وبين المتعدى واللازم واذا كان الاسم ثباتا ، فهناك امكانيات كثيرة داخله ، فهناك النكرة والمعرفة ، والمعرفة بدورها تنقسم الى الضمير والاشارة والموصول ... الخ ولكل واحدة قيم معنية فى التعبير .

لكى تؤدى البلاغة مهمتها فى دراسة الأسلوب والتركيب ، وقفت بالتفصيل أمام المعانى الخاصة لكل واحدة من هذه الأقسام - فيما عرف فيما بعد باسم علم المعانى ، لأن هذا العلم - كما قلنا - بدأ فى خدمة دراسات الاعجاز القرآنى الكريم فى الكتاب الذى سماه عبدالقاهر

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

" دلائل الاعجاز " فقد حرص فى هذا الكتاب على أن يقدم بعض النماذج التى يشرحها ويبين الاعجاز فيها على ضوء هذه النظرية ،ولكن نماذجه كانت جزئية وسريعة ، وقد حاول بعض العلماء من بعده أن يهتموا بالتفسير البلاغى للقرآن الكريم على ضوء هذه النظرية ، كما حدث فى: " تفسير الكشاف للزمخشرى " ، ولقد ازداد الاهتمام بهذا المنهج عند المعاصرين بدءا من تفسيرات الشيخ محمد عبده ورشيد رضا وحتى الآن .

ونود أن نقف أمام آية قرآنية وأن نحاول أن نقدم لها تحليلا بلاغيا على ضوء علم الأسلوب والتراكيب المتمثل فى نظرية النظم ، وهى قوله تعالى :

" وقيل يا أرض ابلعى ماءك ، ويا سماء أقلعى ، وغيض الماء، وقضى الأمر واستوت على الجودى وقيل بعدا للقوم الظالمين " هود (٤٤)

ولقد نزلت هذه الآية الكريمة فى معرض الحديث عن انتهاء الطوفان بعد أن أدى مهمته وعودة الحياة الى حالتها الطبيعية ، وهو موقف أريد له أن يتم بأقصى قدر من السرعة ، كما تم الطوفان نفسه بسرعة فائقة ، فكيف يمكن أن نقف أمام أسرار التركيب من خلال فكرة النظم ومبادىء علم المعانى :

لنبدأ ، بالنظر الى الأفعال التى تشتمل عليها الآية ، وسوف نجدها على النحو التالى : خمسة أفعال ماضية هى :

قيل ، غيض ، قضى ، استوت ، قيل .

ثم فعلى أمر هما :

ابلعى ، اقلعى .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

ولاتوجد أفعال مضارعة ، والملاحظة الأولى على الأفعال الماضية الخمسة ، أن أربعة منها مبنية للمجهول وأن الفعل الوحيد المبنى للمعلوم فيها هو " استوت " ليس له فاعل ظاهر .. والتأمل فى المبنى للمعلوم يرينا أن هناك طرفين هما المرسل والمستقبل ، وأن التركيز عليهما معا ، أما المبنى للمجهول فان التركيز يتم فيه على عنصر الاستقبال فقط ، والضوء هنا يتسلط على الأرض موضع الطوفان ويبقى الذى يصدر لها النداء مهيبا غامضا ، هل هم جنود الله ، الملائكة ، أشياء خفية من جنوده لانعرفها .

تتكون الجملة الأولى

" وقيل يا أرض ابلعى "

من ثلاثة عناصر نحوية : القول ، والنداء ، والأمر ، والعناصر الثلاثة توجه أساسا للعقلاء ، ولكنها فى هذه الآية تحيط بكائن غير عاقل وهو هنا اشارة الى أن كل مافى الكون خاضع لأمر الله والى أن العاقل يستوى مع غير العاقل فى توجيه الأمر والنداء والقول اليه .

اذا تابعنا بقية الأفعال المبنية للمجهول فى الآية وجدنا سياقها جميعا يخدم هدفا واحدا هو سرعة عودة الحياة الى طبيعتها ، فهناك فرق فى السرعة بين غيض الماء وغاض الماء ، مثل الفرق بين جف الثوب وجفف الثوب ، ثم هناك ذلك العموم المكتسب من التعبير ، وقضى الأمر" بمجئ الفاعل معرفا بالألف واللام ، ومعنى دقيق فى عدم ذكر الفاعل فى واستوت على الجودى وهو يعود الى الفلك قبله وفكره الوقوف أمامه تفصيلا مع أنه داخل فى معنى الأمر العام ، ثم هذه المقارنة المعتمدة على تكرار الفعل قيل مرة فى بداية الآية ومرة فى نهايتها وكأنهما

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

لوحتان متقابلتان فى فناء واسع أو عمودان متشابهان فى بناء معمارى ... الخ . وليلاحظ أن قيل الأولى ارتبطت بكائن غير عاقل وجه اليه القول فاستمع وأطاع ، وأن قيل الثانية وجهت لكائن عاقل وجه اليه القول فعصى ، فقيل له " بعدا " وفى هذه المقابلة امكانيات لانهاية لها للتأمل .

نعود الى فعلى الأمر فى الآية ، وهما " ابلغى " و" اقلعى " ، ولنلاحظ أن الموقف هو موقف أنهاء الطوفان وعودة الحياة الى طبيعتها والحرص على أن يتم ذلك بنفس السرعة والقوة التى تم بها الطوفان ، ولننظر فى دقة كيف يتوازى هنا رد الفعل مع الفعل فى احكام بالغ ، ولننظر كيف حدث الفعل فى نزول الماء من السماء وانفجاره من الأرض فى وقت واحد ، كما صورته الآية الكريمة .

" ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر (١١) وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر " (١٢) سورة القمر .

لقد تفجر الماء من الأرض ولم يقل " تسرب " ولاسال ولا خرج " ومن أجل هذا لم يكن رد الفعل ، هو توقفى " ولا " امتصى " ولا " اشربى " وانما جاء " ابلعى " لكى يتوازى مع " فجرنا " فى القوة ويختلف فى الاتجاه ، ونفس الملاحظة مع الماء الهابط الذى قيل فيه ، فتحنا أبواب السماء . فلم يقل " أمسكى " أو " كفى " وانما قيل " أقلعى " وحتى لم يقل " أقلعى عن " وكأن الفعل يوحى هنا بفكرة اقلاع السفينة عندما تأخذ اتجاهها مضادا للشاطئ ، وكأن خيوط الماء الهابطة من السماء لاتتوقف فحسب وانما تأخذ اتجاها مضادا فتعود من حيث أتت .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

هكذا يتكلم من يعلو علم المعاني ومطابقة القيم النحوية للدلالات المختلفة
والأمر والبناء للمجهول والتعريف والحذف والتنكير وغيرها
أسرار تعجز عنها المتناول دائما المتعلم ذلك فهم
الأبناء الأدبي المتميز.

هذا الكتاب منشور في